كتاب (حضارة مصر القديمة)

كتبه الدكتور عبدالعزيز صالح والكتاب أربعة أجزاء سيقتصر حديثنا عن الجزء الأول الذى صدر منه والذى يستهدف كما جاء فى تصديره (الخطوط العريضة لمصرنا القديمة بأسمائها ولغاتها وتكوين شعبها وروابطنا القومية بها، ونشأة الحضارة فيها منذ عمّر الإنسان أرضها، ثم تكوين صورة عامة مترابطة لتطور حياتها السياسية والإدارية والعقائدية والاقتصادية والفنية والأدبية، وعلاقتها الخارجية حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد).

والكتاب ليس من الكتب العلمية فحسب ولكنه من الكتب العزيزة فى المكتبة المصرية فهو حديث حفى موصول عن مصر ينحو للمصرى سماعه وترديده وتعمقه لأنه يرى نفسه فيه.. إنه وجوده النفيس ولعل من توافق الأشياء أننى صحبت هذا الكتاب فى سعيى إلى المعبد العظيم (أبوسمبل) فكان مكملا للرحلة متمما للمعنى فكنت أرى قومى المصريين الأوائل فى آثارهم ثم أسمعهم فى هذا الكتاب.

والكتاب عشرة فصول يستهل الفصل الأول بالحديث عن مصر أسمائها الأولى فيقول الدكتور عبدالعزيز صالح إن أجدادنا كان يطلقون على أرضها كيمه (وتاكيمه) بمعنى السوداء والسمراء والخمرية رمزا منهم إلى لون تربتها وزهوا بدسامة غرينها وكثافة زرعها واعتبروا طابع السمرة أو السواد فيها ميزة تفرق بينها وبين اصفرار الصحراء المحيطة بها والتى اطلقوا عليها اسم (دشرة) بمعنى الحمراء، إشارة منهم الى شدة جدبها.

وكان المصريون القدماء يسمون مصر ايضا «تاوى» بمعنى الأرضين أرض الصعيد (تاشمعو) وأرض الوجه البحرى (تامحو) وكان المصريون يحرصون على تضمين اسم (تاوى) القاب فراعنتهم طوال عصورهم القديمة تأكيدا لالتئام شمل الوجهين فى طاعتهم وفى ظل وحدة سياسية وحضارية متكاملة.

ومن أسماء مصر القديمة النابعة من النيل اسم (ايدبوى) أى الضفتين تحية شاكرة للنهر العظيم كما كانوا يسمونه واهب الخيرات.

يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (ولم يكتف الأجداد بالتعبير عن بلدهم بأوصافها الطبيعية، وانما أضفى أدباؤهم عليها نعوتا شعرية ممتعة، فوصفوها بأنها «ايرة رع» أى عين الشمس أو عين رب الشمس وسموها «وجاة» بمعنى السليمة، و (جاة نثرو) أى عين الأرباب السليمة وسموها (اترتى) بمعنى ذات المحرابين، وسموها «باقة» بمعنى الزيتونة). لما كانت خضراء دائما زهراء ناضرة.

إن مصر ذات الضفتين وذات المحرابين وذات الأرضين وهى عين رب الأرباب.. وعين كل مصرى.

وبعد هذا العرض الشيق لإسم مصر وقف الدكتور عبدالعزيز صالح وقفة طويلة عند اسمين هما أهم الأسماء حتى لا يقارن بأمرهما أسماء أخرى اذ هما اللذان عرفهما العالم الخارجى لمصر ورددتهما نصوصه وهما: اسم (مصر).. ومترادفاته، واسم (ايجوبتوس) ومترادفاته.

ومضى الدكتور الباحث يستشهد بالنصوص الأشورية والفارسية والبابلية واليمنية والعبرية والأرامية السوريانية.. وأفصح من هؤلاء جميعا، القرآن الكريم الذى ردد اسم مصر ترديدا لم يحظ به اسم آخر أو بلد آخر. كما وقف عند دلالات الأسماء واحتمالات مصادرها.

ثم انتقل الى الحديث عن مصر القديمة بين جيرانها فى الجنس واللغة وكيف نسب المصريون أنفسهم الى بلدهم فقالوا إنهم (كيمتيو) أى أهل كيمة، وردد أدباؤهم أن شعبهم هو شعب الشمس، والشعب النبيل، وشعب السماء، وشعب الإله، وادعوا أنهم صور من ربهم الأكبر (تشكلوا من لحمه، وخلقوا من عينيه، ونزلوا من دموعه).

ثم ذكر العوامل الكثيرة المتشابكة التى ربطت بين مصر وجيرانها ثقافيا ولغويا واقتصاديا وسياسيا ووديا.

ومن أمتع ما ورد فى الكتاب المقارنة التى عقدها الدكتور الباحث بين المفردات المصرية والمفردات السامية بوصف اللغة المصرية تضمنت بفعل العوامل المشار إليها (مفردات سامية غير قليلة عاشت حتى عصور اللغة السامية الكلاسيكية وعاصرت مفردات المعاجم، واستمر بعضها حتى عصرنا الحاضر، مع تغييرات طفيفة لا تكاد تحس فى حروفها وحركاتها، وهى تغيرات لم توجد بينها وبين المفردات المصرية فحسب، بل وجدت أمثالها كذلك بين مفردات أهل الشام وأهل العراق وأهل شبه الجزيرة العربية، ووجدت بين مفردات فروعهم الداخلية الصغيرة أيضا).

وضرب الدكتور عبدالعزيز صالح الأمثلة ففي التعبير عن أعضاء جسم الإنسان، عبر المصريون في نصوص الدولة القديمة، عن العين بلفظ «عين» وعبروا عن الرجل بلفظ رد، واستخدم العرب هذا اللفظ فقالوا ما أدرى أين ردى ورفعت أخرى. كما جاء في تاج العروس.

وفي أسماء السوائل والنباتات والأشياء والمعنويات والصفات، عبر المصريون في نصوص الدولة القديمة عن الماء بلفظ مو، وعبروا عن القمح بلفظه الحالي.

ويقرر الدكتور الباحث أن (نصوص الدولة الوسطى قد أضافت ثروة سامية جديدة من الأسماء والصفات والأفعال). وأن نصوص الدولة الحديثة لم تقصر في هذا المضمار.

وعقد الدكتور الباحث مقارنة مماثلة بين اللغة المصرية القديمة وبين مفردات جيرانها الأفريقيين لاسيما الليبيين والنوبيين وأتى في هذا المجال بأنهار من مفردات الأسماء والأفعال.

ولم يفته أن يدفع عن الشخصية المصرية ما قد يتبادر إلى الذهن من شبهة المسايرة أو الإنقياد فقرر أن التقارب بين اللغة المصرية وبين جاراتها في الشرق والغرب والجنوب لم يؤد الى ضياع خصوصيتها اللفظية اطلاقا (ولم تكن المفردات التي أسلفناها غير قلة قليلة من كثرة كثيرة من مفردات إبتدعها المصريون بوحي بيئتهم وبما يناسب مطالب حضارتهم ويتفق مع أذواقهم وتخيلاتهم، فهم وإن شاركوا إخوانهم الساميين في التعبير عن العين بلفظ عين على سبيل المثال، إلا إنهم إبتدعوا للعين ستة أسماء أخرى فضلا عن عدد من الصفات، وإذا شاركوهم في التعبير عن الأذن بكلمة اذن الا انهم ابتدعوا لها خمسة اسماء سواها لم يشاركهم فيها جيرانهم. وإذا شاركوهم في التعبير عن الطفولة بلفظ طفل (طفل). إلا أنهم عبروا عنها من ناحيتهم بما لا يقل عن عشرين لفظة أخرى. وظل ذلك شأنهم في التعبير عن كل ما أحاط بهم وعاشوا فيه ووصفوه، فعبروا عن السماء بنحو أربعين إسما وصفة، وعبروا عن العرش بنحو ثمانية عشر إسما وصفة، وعبروا عن حركات المشي في الذهاب والإياب بنحو أربعين فعلا، وعبروا عن حالات الفرح والإستمتاع بنحو أربعين فعلا أيضا.

وعلى أية حال فليست المفردات هي السبيل الوحيد لتصوير مكانة اللغة المصرية القديمة بين جاراتها، ولكن ظلت قواعد نحوها وصرفها أكثر دلالة منها في تصوير الصلات بين مصر وجاراتها من ناحية، وتصوير شخصية مصر اللغوية المتميزة من ناحية أخرى.

وهنا تتواكب فى الكتاب الأدلة العلمية فما يكاد يفرغ منها الدكتور الباحث حتى يقرر من جديد أن اللغة المصرية قد إحتفظت (بتشبيهاتها البيانية التى خدمت وجوه الحضارة الفكرية والمادية التى طرقتها دون جيرانها أو أكثر من جيرانها).

وهذا البحث اللغوى ساق الى بحث لفظة شهيرة ذات طابع بين ركام الألفاظ.. وأعنى لفظ (فرعون) (وما ترتب عليه من تسمية المصريين أحيانا بالفراعنة واغراق بعضنا فى استخدام هذه التسمية للمفاخرة، واغراق بعض آخر فى استخدامها للقدح والتجريح).

وهنا ناقش اللفظ مناقشة علمية لغوية انتهى منها الى أن اللفظ فى جوهره (لقب) يعنى البيت العالى أو البيت العظيم ثم شفعه المصريون بعبارات دعاء للملك الذى تتركز فى قصره السلطات العليا لدولتهم. (وهكذا لم تكن تسمية فرعون وفراعنة تدل على جنس بعينه، ولم تكن تعنى كفاية معينة، أو نقيصه معينة، ويترتب على ذلك أنه اذا كانت أغلب مفاخر مصر القديمة قد تمت باسم الفراعنة، فليس الفراعنة بمعنى الملوك هم أصحاب الفضل وحدهم فى إقامتها ولكنهم المصريون وفيهم الفراعنة..، وإذا كان القرآن الكريم من ناحية أخرى قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى.. بالطغيان والجبروت وتجاوز عن ذكر اسمه، فعلينا أن نؤمن بكل ما وصفه به وقاله فيه، ولكن ليس من المنطق إطلاقا أن تعمم صفات هذا الفرعون على كل الفراعنة المصريين، فالحكام فى كل مجتمع وزمان وأيا كانت ألقابهم، يظهر منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم، والبارز والخامل، وهكذا كان شأن الحكام المصريين وغير المصريين.

والقيمة الكبرى لهذا الكتاب، أنه ناقش مناقشة علمية أفكارا ثابتة مكنت لها اعتبارات شتى لم تتحر فى كل حال وقائع التاريخ.

ولم يبال المؤلف أن يواجه ما تواضع عليه الجمهرة من اعتقادات بل قرر فى ثقة العالم وإيمانه بالحقيقة والحقيقة وحدها، الوقائع فى تحديد ووضوح سافر لا يعرف المواربة أو القابلية لشتى التفسيرات والتخريجات.

قرر الدكتور عبدالعزيز صالح فى غير جمجمه أو إلتواء أن (لبانة المجتمع المصرى الحالى هو لبانة المجتمع المصرى القديم من حيث الدم.. والهيئة والقامة ولون البشرة مع كل ما فيها من فوارق ضمنية فى الخلقة بين فرد وآخر، وأسرة وأخرى، وفوارق إقليمية بين البحاروة والصعايدة وأشباه

النوبيين فضلا عن فوارق الطابع بين أهل القرى وأهل المدن. واذا كانت قد تعاقبت على أرضنا عهود قديمة أحتلها فيها فرس وإغريق ورومان وبيزنطيون ومن لف لفهم وعمل فى خدمتهم فالذى لاشك فيه هو أن الإختلاف الجنسى بين اولئك الدخلاء وبين المصريين كان محددا للغاية) وأردف هذا بذكر الأسباب.

ثم ذكر نزول العرب مصر فى بداية ظهور الإسلام فأبرز حقيقة واقعة (وهى أن أهل البداوة منهم ظلوا قليلى التزاوج مع المزارعين.. المصريين، على نحو كانوا قليلى الإختلاط بأصحاب الحرف وأهل الحضر.. المستقرين فى شبه الجزيرة العربية نفسها، واقتصر تأثيرهم الجنسى وتأثرهم الجنسى على من شاركوهم معايشهم من البدو المصريين دون أهل الحواضر وأهل الريف).

وهنا يقرر كما قرر من قبل الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) وكما يقرر كل عالم بالتاريخ يقدّر قيمة الكلمة ويعلى الحقيقة فوق ما عداها، أن مصر نجت بل سمت وارتفعت على (انقسام الشخصية حين آمنت بالمسيحية وحين آمنت بالإسلام، وظل كل من نزلوها أعدادا مضافة إلى لبانتها دون أن يكونوا عوامل تغيير فى قوميتها).

فمصر قد تكلمت العربية بعد قرون من الفتح العربى لأنها فى الوقت نفسه لغة القرآن الكريم ولكن لم تجب اللغة المصرية القديمة تماما (وظلت بقية من مفردات لغتنا القديمة قائمة حية فى مجتمعنا المعاصر، تصل أهلها بماضيهم، وتجرى على ألسنتهم فى أسماء قراهم ومدنهم وأسماء شهورهم الزراعية وتتخلل أحاديثهم فى شئون حياتهم اليومية).

وهنا تضيق الصفحات بما أورده الدكتور عبدالعزيز صالح من أسماء وصفات وأفعال وصيغ نرددها فى لغة حياتنا اليومية مما يكفى بعضه ليروع القارىء والمصرى والآخرين ايضا، وقد رد هذا كله إلى إصوله المصرية القديمة ومن الطريف أنه (مازالت آثار قواعد اللغة القديمة باقية فى بعض اساليبنا الدارجة مع إختلاف الألفاظ، مثل: قام ككتب، .. وحايكتب، ورايح يكتب، وهو بيكتب، وعمال يكتب.. وكلها صيغ غير معروفة فى العربية الفصحى.. وعبارات أخرى وألفاظ كثيرة تشيع فى الريف وفى الصعيد بخاصة لاتزال تتطلب جهدا طويلا فى جمعها وتفسيرها وردها الى أصولها).

وليس هذا من عمل الإيمان (بالمصرية) أو تأكيدا (الذاتية) أو الولاء لهذا الوادى المقدس أو الوفاء لهذا الشعب النبيل فإن جوستاف لوبون يقول فى كتاب (المدنيات الأولى): (غزت مصر

شعوب مختلفة، ولكن البلاد استطاعت برغم ذلك أن تهضم هؤلاء الفاتحين جميعا، محتفظة بفنونها ولغتها، وعقائدها، فلم يتح لأولئك الفاتحين أن يؤثروا فيها.. اللهم إلا العرب الذين فرضوا عليها دينهم ولغتهم وفنونا أجنبية. ومع ذلك، ظلت مصر رغم هذا الإخضاع فرعونية الدم) ويشايع لوبون، لودفج، وبترى ويشايعهم جميعا منطق الواقع وحقائق التاريخ.

ثم تحدث الكتاب عن (مراحل التاريخ الحضارى لمصر القديمة) وعن (دهور ما قبل التاريخ). ويروى الدكتور عبدالعزيز صالح لنا، قصة البحر الأبيض مع مصر وقصتها مع البحر الأحمر أما قصتها الكبيرة فكانت مع النيل قبل ظهور الإنسان على أرض مصر وفى بداية ظهوره ولكنه (بدأ أهم مراحله أثرا فى حضارة أهله منذ تفتحت له آفاق النحت والنقل من رواسب الجنوب فى أواخر الدهر الحجرى القديم الأوسط فحمل الغرين الدسم منها، وغطى به الحصباء والرمال الخشنة القديمة فى واديه ودلتاه شيئا فشيئا وردم به مناقع واسعة صادفته فى الصعيد وجعلها مهيأة للعمران والسكنى).

وأكد الكتاب حقيقة كبرى تغيب دائما فى طيات عبارة هيرودوت المشهورة (مصر هبة النيل). إن نهرنا العظيم صاحب حضارتنا بفنونها وعلومها وآدابها واخلاقها وقيمها ولكن ذلك كله لا ينفى كما يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (أن مصر الزراعية المتحضرة كانت ثمرة من ثمرات الجهد المصرى الأصيل، كما كانت هبة النيل فى آن واحد).

وفى حديثه عن الدين لخص جوهر العقيدة عند قدماء المصريين بقوله: (إن تقديس المصريين للقوى الربانية الخفية التى تبينوها فى دنياهم وفى بيئتهم هو الذى وجههم إلى إظهار الود نحو مخلوقاتها الظاهرة التى توهموا فيها آيات اربابهم وتخيلوا فيها صفات تتفق مع تصوراتهم عن أربابهم).

ومن الخطوط البارزة فى الكتاب خط بناء الهرم هل بنى الهرم بأيد (مسخرة موثقة)؟ إن المسخر الموثق يفعل ما يؤمر به ولكن عمله مزاولة فحسب لا إبداع فيها ولا روح والباحث العالم هرمان يونكر يؤكد (ان روح الرضا والرغبة فى الإبداع والإتقان كانت غالبة على من تكفلوا ببنائه وان عوامل التسخير والإجبار قد تستطيع أن تبنى الهرم الأكبر، وما هو أعظم من الهرم الأكبر ولكنها لم تكن تستطيع وحدها أن تبلغ به إلى ما بلغه من الإتقان بحال من الأحوال).

كما يؤكد الكسندر شارف (أن تقديس المصريين للموكهم ورغبتهم فى عبادتهم بعد موتهم هى التى دفعتهم إلى التفانى فى بناء أهرامهم ومعابدها). بل يذهب إلى ابعد من هذا فيؤكد ثانية (أن حرص افراد الطبقات الكادحة على أن يدفنوا حول هرم خوفو بعد اربعة قرون من وفاته، يؤكد بقاء ذكراه الطيبة بينهم ويبعد عنه سمة العتاة المستبدين).

إن التاريخ الحديث يذكر أن الفنان مايكل انجلو مبدع القبة العظيمة بكنيسة القديس بطرس كان يرفض بعاطفته الدينية أن يتقاضى أجرا عن أعماله بها فما بالنا بالمصريين القدماء منذ ألوف السنين الذين كانوا يرون ملوكهم آلهة وأبناء الشمس ومالكى مصائرهم لا فى الدنيا وحدها بل فى الآخرة أيضا.

ويشير الدكتور عبدالعزيز صالح فى مناقشته بناء الهرم، إلى ظروف مصر الطبيعية واعتمادها قديما فى حياتها الزراعية على دورة زراعية واحدة، مما ينجم عنه تعطل عمال الزراعة بضعة شهور من كل عام كانت فرصة لهم.. وللحكومة وعلى رأسها فرعون أن يعملوا فى المنشآت والمشاريع العامة ليأمنوا غائلة البطالة حين تطرد حركة البناء والتعمير فى الوطن يؤكد هذا أو يرجحه على الأقل ما رواه المؤرخون الإغريقيون الذين زاروا مصر القديمة من أن العمل فى الهرم كان يستأنف أو يشتد عادة فى مواسم الفيضان ومارووه من أن بناء الهرم الأكبر وتوابعه إستغرق نحو عشرين عاما ولم يتم فى وقت قصير.

يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (ليس من آثار أو نصوص باقية من عهد خوفو بالذات تكشف عن طريقة معاملة رجاله لعماله، ولكن يمكن أن يستشهد من طريق غير مباشر بما أسلفناه عن تخصيص شؤون الغلال فى مجموعة زوسر بسقارة لتموين العمال وقت بناء الهرم. وتموين الكهنة بعد بنائه وما سوف نذكره عن تخصيص مساكن للعمال بجوار هرم خفرع لإيوائهم عوضا عن تركهم يبيتون فى العراء. وقد تخلفت نصوص لأثرياء من عصر الأسرة الرابعة نفسها وأثرياء عهود مختلفة أخرى من الدولة القديمة تعمد أصحابها أن يصوروا الظروف التى شيدوا فيها مقابرهم والأساليب التى عاملوا بها من إستأجروهم فيها، فقال رجل من عصر الأسرة الرابعة (كل صانع عمل فى مقبرتى أرضيته) وردد اخرون فى نصوصهم قولهم (أنفقت على قبرى هذا من متاعى الحلال، ولم يحدث إطلاقا أن أغتصبت متاع شخص ما). وقال آخرون فى نصوصهم: (أرضيت كل الصناع الذين أتموا لى عملا فى هذا القبر بالخبز والشراب وكل شىء طيب) وقال

بعض من تولوا رياسة الإتباع والصناع: (لم أضرب إنسانا وقع تحت يدى، ولم أستبعد أحدا فى العمل) وليس من شك فى أن مثل هذه الأقوال لا تخلوا من مبالغات يستقبل الشخص بها حياتها الأخرى ولكن ليس من شك كذلك فى أنها لا تخلو من إثارات صدق).

ويختم الدكتور عبدالعزيز صالح مناقشته للمسألة بأن الفراعنة إذا كانوا قد وجهوا جانبا كبيرا من موارد أرضهم إلى صالح المعابد والمقابر والأهرام، إبتغاء خلود الذكر أو تكريما للأرباب وإظهارا للتقوى أو إستمالة لأهل الدين أو حتى التقليد والتفاخر، فان غيرهم من الحكام لهم من الآفات ما لا يشفع فيه مجلى فن أو استهداف أو قربى الآلهة فكان (من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب البطن وسفك الدماء والنهم إلى الجبروت، وكان من أمر الحكام الرومان الإقدمين مثل أمرهم، وكان من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت أموالها فى سبيل بناء القصور وحياة الإستمتاع ومدائح الشعراء).

***

لقد تحدث الكتاب عن (فجر التاريخ) فى مصر وما أمتع حديثه عن مرمدة بنى سلامه وحضارات حلوان والفيوم وديرتاسا ثم حديثه بعدها عن البدارى والمعادى. وحديثه عن الفنون بألوانها وقصتها مع الإنسان المصرى على ضفاف النيل.

إن كتاب (حضارة مصر القديمة) بهذا كله ومن أجل هذا كله خليق بالقراءة المتعمقة، حقيق بالدرس المتأمل كفاء ما بذله صاحبه من جهد البحث والإطلاع والتقييم والعرض والتحليل.

إن هذا الكتاب لمصر بما فيه من غذاء للشخصية المصرية والعزة المصرية.. والعزيمة المصرية والطاقة المصرية طاقة العمل والأمل والطموح والقدرة والإنتصار.

• إن هذا الكتاب لمصر بما فيه من فنونها وعلومها وعقائدها وكفاحها ونجاحها ومقاومتها وصلابتها وإصرارها وكبريائها وعنادها وآلامها وآمالها.

إن هذا الكتاب لمصر بما ردد من أسمها وأعلى من قيمها وصفى لها من حب يتودد، ورقرق لها من غناء بتعبد وسكب عليها من حنان يتملى ورفع إليها من أناشيد تتغنى أنه فى محرابها صلاة تعمق الإيمان بها «بذات الأرضين.. بذات المحرابين» بذات الضفتين.. بمصر الخالدة.

كتاب (تاريخ البشرية)

هذا الكتاب من ستة مجلدات كبيرة كل منها فى جزءين أعدته اللجنة الدولية لتاريخ التطور العلمى والثقافى للإنسانية التى تتألف من مائة وخمسين من أبرز ما فى العالم من مفكرين ومؤرخين وعلماء وإقتصاديين وفنانين بإشراف منظمة اليونسكو.

ترجمة ومراجعة الأساتذة:

عثمان نويه. د. راشد البراوى. محمد على أبو دره

أخرجته الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

جاء فى صدر الكتاب أن جوليان هكسلى كتب عام ١٩٤٦ حين كان سكرتيرا تنفيذيا للجنة التحضيرية لانشاء منظمة اليونسكو (أن على الإنسانية اليوم واجبا أساسيا هو أن تتعاون فى صياغة تاريخ لتطور الروح الإنسانية والإنجازات الثقافية ومثل هذا العمل يتطلب تعاونا تاما بين نقاد الفن والفنانين ومؤرخى الفن وعلماء الأجناس والإخصائيين فى الدراسات المقارنة للأديان وعلماء الآثار والأدباء والشعراء وأساتذة الأدب كما يتطلب من المؤرخين أن يسهموا فيه بقدر كبير.

وفى هذا العمل يجب أن يحتل التطور الثقافى فى الشرق حيزا مساويا لما يحتله التعاون الثقافى فى الغرب. وهيئة اليونسكو هى القادرة على إنجاز هذا العمل وذلك بفضل تعدد إهتماماتها وقدراتها على دعوة الباحثين من شتى الأقطار للتعاون فى إنجاز هذا المشروع العظيم..)

أقول: هل نحيى هذه الدعوة الآن والبشرية تعانى من القلق والحرب الساخنة والباردة والاغتراب والاحتراب؟

الذى أقدمه من هذا الكتاب الموسوعى هو المجلد السادس منه لعدة أسباب:

١ - إنه يعنى بالقرن العشرين والتطورات العلمية والثقافية فيه والتغيرات الاجتماعية تغيرات كبرى فى المفاهيم والأفكار.

فالموضوع أمس بالإنسان المعاصر على الساحة الكبيرة أى العالم، الذى نشكل جزءا حساسا منه.

٢ - إنه يفرد فصلا كبيرا حافلا عن: الدين فى عملية تأريخ للأديان ونشاطاتها فى وجه الاتجاهات الزمنية التى سادت الحياة الحديثة وارتباط الدين بالشعور القومى فقامت باكستان بإنشاء دولة حديثة على أساس التعاليم الإسلامية، ونص الدستور المصرى عام ١٩٥٦ على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة، وفى أندونسيا حزبان إسلاميان من الأحزاب السياسية الأربع الكبرى فيها، مقترنة بروح القومية الإفريقية وقدمت الأحزاب الديمقراطية المسيحية كثيرا من القادة فى حركة إعادة بناء اوربا بعد الحرب العالمية الثانية.

يقول الكتاب (فى عالم مزقته حربان عالميتان فى جيل واحد، وصدَّعت بنيانه عشر سنوات من الإنهيار الإقتصادى وملأ أرجاءه أناس اقتلعوا من ديارهم عن طريق الهجرة الاختيارية أو الجبرية، وغامت على حياتهم الخشية من احتمالات إستخدام القنابل الذرية والهيدروجينية وامتهنت كرامتهم إجراءات الدول البوليسية وهزتهم الفوضى الاجتماعية التى تلت التغيير الاجتماعى- فى هذه الظروف بدا أن الدين هو الذى يقدم لكثير من الناس طرق الأمان وسبيل الإخلاص من شرور العصر ووسط ماساد الحياة الحديثة من فقد الذاتية والاضطراب والصراع قدم الدين إحساسا بالذاتية وإساسًا لتضامن المجتمعات. ومن أوربا وأمريكا على نحو خاص حيث انتشرت اللامبالاة الدينية إلى اقصى حد، ظهر ان بعث الحياة فى الدين يعكس رغبة فى إعادة كشف جوهر داخلى للتماسك كان يبدو أنه قد فقد ولإعادة الحياة إلى القيم والمفاهيم التى كانت لها الغلبة فى الثقافة الغربية يوما).

ويذكرنى هذا بالمؤرخ العالمى ارنولدتوينبى فهو يرى الحرب والطبقات عاملين يتهددان الإنسان الحديث وحضارته.. وعنده ان الحرب والطبقات داء المدنيات جميعا. وعنده المخرج من هذا الداء أن نقيم البناء الدنيوى الخارجى على أسس من الدين. وحين يعدد أهداف المدنية الغربية ويجعلها ثلاثة:

السياسة.. والاقتصاد.. والدين الذى يراه أهمها جميعا، ليس من شك فى أن الهدف الدينى من بين هذه الأهداف الثلاثة أهمها جميعا فى النهاية. فالسياسة كما يقول لا تحقق النجاة بالسيادة المطلقة، فى الدول الإقليمية، أو بحكم الإستبداد الذى لا يلين والذى تتولاه حكومة عالمية مركزية.

وهى لا تتحقق فى الإقتصاد بالمشروعات الفردية غير المقيدة أو بالإشتراكية غير المخففة لقد أفلست حضارة الغرب بكل التكنولوجيا أن تحقق لإنسانه السعادة لأنها اعتمدت على الذهن وحده فأجدبت الروح من طول الإهمال.. إن ازدياد المعرفة كما يقول «رادا كريشنان حكيم الهند» دون أن يقابله نمو فى تاريخ البشرية لايُجدى. لقد سيطرنا على قوى الطبيعة وتحكمنا فى البحار وغزونا الفضاء. ولقد زدنا من الإنتاج وحاربنا المرض ونظمنا التجارة وجعلنا الإنسان سيدا على بيئته، ولكن سيد الأرض لا يستطيع على الرغم من هذا إن يعيش مطمئنا فهو يختبىء فى باطن الأرض تارة، ويلبس الأقنعة يتقى بها الغارات تارة أخرى. أن مخاوف الحروب تطارده فهو يعيش فى حالة من الشك دائمة. ولا يمكن أن تكون هذه الحضارة المهددة بالحرب، والمندفعة بقوة الآلة هى آخر ما يصل إليه الإنسان من كفاحه.

حتى «اينشتين» عالم الطبيعة العالمى يعلن أن الغرب كسب الحرب ولكنه لم يكسب السلام، لقد وعد ميثاق الأطلنطى العالم بالتحرر من الخوف ولكن الخوف إزداد كثيراً منذ إنتهاء الحرب.. وقد وعد العالم التحرر من الغزو غير أن المجاعة تهدد اليوم أجزاء كبيرة من العالم فى حين أن أجزاء أخرى تمرح فى رغد العيش وعد بالحرية والعدالة بَيْدَ أنّا شاهدنا ولانزال نشاهد، المنظر الأليم، منظر جيوش «التحرير» تطلق النيران على شعوب تطالب بإستقلالها وبالمساواة الإجتماعية وتؤيد فى تلك الشعوب ذاتها، بقوة السلاح الأحزاب والأشخاص الذين يصلحون لخدمة أغراض أصحاب المنفعة كما أن مشكلات الحدود والتنازع على السلطان، وإن تكن من الأمور البائدة، لاتزال تغطى على المطالب الأساسية مطالب الرفاهية والعدالة).

حدد هذا المجلد معالم القرن العشرين وتتمثل فى:

الصراع بين فكرة القومية وفكرة وحدة البشر

الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أعلنته الأمم المتحدة ووضع أراضى الوصاية تحت الإشراف الدولى ومع أنه لا يستطيع أحد أن يدعى أن كل الشعوب قد وصلت إلى مستوى تكافؤ الفرص، فإن الحقيقة التى تلفت النظر فى القرن العشرين إذا قورن بما سبقه من عصور التاريخ، هى الإلتزام بمبدأ المساواة على نطاق عالمى.

أقول هذه المحاولة فى القرن العشرين تردنا إلى القرن السابع الهجرى كيف رسخ الاسلام معنى المساواة فى نفوس أهله وأصله وأصل مفهومها تأصيلا انعكس على الحكم فالإسلام فى

الحكم يدين بنظرية الأمة الواحدة ولا أحاج هنا بالتقسيم: العرب والموالى فلست أتكلم عن أفراد تحكمهم مصالحهم أو تفكيرهم المحدود ولكنى أتكلم عن تفكير الإسلام وروح الإسلام وجوهر الإسلام.

لقد انعكست المساواة فيه على نفوس المؤمنين الصادقين فكان عمر رضى الله عنه يقول عن «بلال» سيدنا ولكن هذا، عمر الذى أعطى الدره للمتسابق المصرى وقال له مشيرا إلى ابن عمرو بن العاص: اضرب ابن الأكرمين. والتفت إلى وإليه على مصر عمرو بن العاص وقال قولته الباقية: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

المساواة فى الإسلام انعكست على المسجد الإسلامى فالذى يصل مبكرا يقف فى الصف الأول ولو كان خفيرا والذى يصل آخرا يقف فى الصف الأخير ولو كان أميرا.

انعكست المساواة فى الإسلام على العمارة الإسلامية التى مالت إلى الخط الأفقى الذى يعين على المساواة حين يشير الخط الرأسى إلى التفاضل وهذا موضوع كبير.

يقول الكتاب عن الولاء الدينى للإسلام إنه كان (أقوى تعبير عن الإسلام ومشاكله الكبرى فى القرن العشرين فى المجال السياسى.. فالإحياء الإسلامى كان جزءا لا يتجزأ من حركة الثورة السياسية والإقتصادية بين الشعوب الإسلامية. وقدم الاسلام مصدرا روحيا للقومية ثقافيا وسياسيا فمنح الجهاد ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب المقدسة.

وفى الإسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسى نجد أن إصراره التام على المساواة بين المؤمنين يتمشى مع الاتجاهات الديمقراطية الحديثة).

ومن ظاهرات القرن العشرين فى الكتاب

تقوض فكرة التسبيح بالحضارة الأوربية. أى كسر حدة الغرور الحضارى فى أوربا.

ومن الظاهرات، ظفر النقابية والمساواة الجماعية بالإعتراف الكامل

ومن الظاهرات إعلان ميثاق الأطلنطى فى اغسطس سنة ١٩٤١ الحريات الأربع منها

١ - حرية (التحرر من الحاجة)

٢ - حرية (التحرر من الخوف)

ومن الظاهرات.. توسيع نطاق مسئولية المجتمع الذى قابله ضيق نطاق مسئولية الأسرة.

فإن توزيع الوحدات الإقتصادية على الأفراد والنظر إلى كل فرد على أنه وحدة من وحدات المجتمع، قد قوضا أركان البناء الهرمى داخل الأسرة.

تكلم الكتاب عن النظم الإقتصادية فى فصل كامل.. وفى فصل آخر عن النظم الإجتماعية وفى فصل رابع عن النظم السياسية وفى فصل خامس عن النظم العسكرية وفى فصل سادس عن الدين كما أسلفت.

وفى هذا الفصل وقفه عند اقتناع الشيخ محمد عبده بأنه لا يوجد تعارض بين علم الغرب والفكر الإسلامى هذا فى مصر..

وفى الهند كان السيد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨) يعمل على أساس مفاده أن جوهر الإسلام يتسق مع الطبيعة وقوانين العلم كما أن المشرع الهندى سيد أمير على فى كتابه البالغ التأثير «روح الإسلام سنة ١٨٩١» يستشهد بالقرآن الكريم لتأييد الأخلاقيات الإجتماعية المعاصرة فى امور منها الرق، وتعدد الزوجات، والطلاق بالإكراه، وأكد دور الإسلام كقوة تقدمية متحضرة.

الفصل السابع من الكتاب

هذا المجلد عن (التعليم) ونظمه بإعتباره من أعظم الأمور التى تشغل مجتمعات القرن العشرين فى كل أنحاء العالم.

أما الفصل الثامن والأخير من هذا المجلد الذى تبلغ صفحاته ٤٨٦ من القطع الكبير، فهو (استخدام وقت الفراغ).

لاتزال كلمة باقية تعطى الحجم الحقيقى لهذا الكتاب..

أن اللجنة الدولية التى قامت بتأليف هذا الكتاب أنفقت ما يزيد على خمسة عشر عاما فى متابعة كل ما كتب أو يكتب من أبحاث منهجية ووثائق.. كما تم إجراء مواجهات مباشرة بين المؤلفين لم يسبق لها مثيل من قبل وما كان ليستطيع تحقيقها غير منظمة عالمية مثل اليونسكو.

لقد قررت اللجنة الخطة العامة للكتاب ثم عهدت إلى المختصين البارزين بعمل مشرفين على الكتاب كل فيما يخصه. وكان من الواجب على هؤلاء المشرفين أو المديرين أن يخضعوا لقاعدة صارمة هى أن يضعوا آراءهم وجها لوجه أمام آراء مؤرخى العالم أجمع وهكذا تحققت للكتاب موضوعية لم يسبق لها مثيل من قبل.

وقبل طبع أى فصل من الكتاب كان يعرض للمراجعة المنهجية ويوزع على كل اللجان القومية لليونسكو وكل مستشارى التحرير الذين اختارهم مؤتمر الخبراء التابع للجنة الدولية.

وكان لابد مع ذلك من عدم الأخذ بالكثير من التعليقات التى قدمها الإخصائيون السوفييت والأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والإيطاليون والألمان واليابانيون والمكسيكيون لأسباب تتعلق بتفسيرات تاريخية أو بأيديولوجيات لم تقبلها هيئة المشرفين.

***

وبعد ما أحوجنا إلى قراءة هذا الكتاب فى إطلالة على ما عند الآخرين تعمق بها عندنا طرائق التفكير وأنماط السلوك وأساليب التناول والأحكام.

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية

ألف هذا الكتاب الأستاذ محمد عبدالله عنان صاحب موسوعة تاريخ الأندلس، من بدايته إلى نهايته، فى سبعة مجلدات كبيرة.

وكتاب (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية) ثلاث كتب:

الأول: الخطط فى تاريخ مصر

الثانى: فى تاريخ مصر الإسلامية

الثالث: صور من الأدب المصرى

سجل المؤلف لمصر ريادتها فى التأريخ وإبتداعها تاريخ الخطط والآثار (وهو فى رأينا فن مستقل بذاته من فنون التاريخ، كان لمؤرخى مصر فضل ابتكاره ثم فضل تقدمه وازدهاره حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبتا حافلا فى تراثنا التاريخى).

لقد كتب بعد مصر كثيرون، عن الأمصار الإسلامية (ولكن تناول هذه الأمصار لم يكن بنفس الاستيعاب والتخصص اللذين تناول بهما المؤرخون المصريون «الخطط والآثار» المصرية وتاريخ عاصمة الإسلام فى مصر، وتطورات أحوالها ومجتمعاتها فى مختلف العصور فليس بين الأمصار الإسلامية العظيمة من حظيت كمصر القاهرة بمجموعة حافلة من الآثار والسير متصلة متعاقبة).

وهنا أريد أن أفسر هذا. لقد سجلت مصر تاريخها وإنجازاتها فى معبد سيتى الأول صفوفا صفوفا.. قطوفا قطوفا فلما دخلت فى الإسلام، أعطت مصر للإسلام فن الخطط بسابقتها فى التسجيل، وحبها للحفظ والحفاظ.

إستهلت مصر كتابة الخطط بابن عبدالحكم وبلغت بها قمة من خلال المقريزى. وبعد مصر كتب الكاتبون: البلاذرى واليعقوبى والطبرى والإصطخرى والمقدسى وأبو بكر الخطيب.

يقول الأستاذ عبدالله عنان، إنهم جميعا ماعدا أبو بكر الخطيب (ليسوا مؤرخين إخصائيين للخطط والآثار بالمعنى الذى يطلق على المؤرخين المصريين، ولا تجمع بين آثارهم وحدة التعاقب

والإتصال التى تجمع بين آثار الخطط المصرية ومن ثم كان تاريخ الخطط والآثار، فنا فى الأدب التاريخى، مستقلا بذاته Sui generis وكان فنا مصريا، إبتدعه المؤرخون المصريون، وانفردوا بالتخصص والبراعة فى عرضه واستيعابه).

ثم استأنفت مصر القممية فى كتابة الخطّط فوفقت توفيقا من خلال على باشا مبارك صاحب الخطط التوفيقية.

يدور الفصل الأول عن (عاصمة الإسلام فى مصر) ومنه يعرف القارىء كيف أعطت مصر للإسلام الأمصار وما يتصل بها من معاهد وآثار وعطاؤها ليس للماضى ولكنه ساير الزمن. وصار شاخصا ماثلا بل لعل مصر فى هذا ظاهرة إسلامية فقد إحتفظت بمعظم آثارها الإسلامية حتى اتصلت خطى التاريخ الإسلامى على ترابها وهو ما لا نظير له فى البلاد الإسلامية الأخرى. يؤكد هذا الأثرى الإسلامى حسن عبدالوهاب فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق سنة ١٩٤٧ كما يؤكد الأستاذ محمد عبدالله عنان فى هذا الكتاب إذ يقول (القاهرة وحدها، من بين الأمصار الإسلامية العظيمة. مازالت تحتفظ بمعظم مواقعها وآثارها القديمة وبينما فقدت معظم الحواضر الإسلامية المشرقية أثوابها الزاهية التى كانت لها فى العصور الوسطى، وفقدت معظم مميزاتها وخواصها القديمة، وبينما أضحت قرطبة واشبيلية وغرناطة منذ بعيد مدنا.. لم تبق فيها من آثار الإسلام سوى صروح قليلة وأطلال دارسة، إذا بالقاهرة وحدها تجمع إلى عظمتها فى العصور الوسطى وإلى آثارها الإسلامية الباهرة، كل مميزات الأمصار الغربية العظيمة، وإذ الكثير من خططها ومعالمها القديمة لايزال حيا قوى الأثر، تؤكده وتعينه آثارها الباقية) ص ١١.

أقول أعطت مصر للإسلام، القاهرة وهى مدينة تجمع مدنا فهى الفسطاط والعسكر والقطائع وهى القاهرة.. وهى قبل هذا (منف) بوراثاتها الحضارية التى جعلت القاهرة أصيلة عريقة ذات عطر خاص أو غدت كما يقول المؤلف (منار الإسلام ومعقله وعروس أمصاره).

ويتفنن المقريزى فى وصف (القطائع) التى عمرها أحمد بن طولون كما يتفنن «ابن حوقل» فى وصف الفسطاط لتحسب الصفات والميزات للقاهرة عاصمة العواصم وأم المدائن وأخت التاريخ وبنت الحضارة والعمارة والفنون والعلوم وحين انقرضت الدولة الطولونية، بعث الخليفة المكتفى بالله جنده إلى مصر لإستعادة سلطة الخلافة فيها فدخلوها بقيادة محمد بن سليمان فى

أوائل سنة ٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م (واقتحموا القطائع، وأضرموا فيها النار، وخربوا قصورها ومعاهدها وحدائقها).

وهنا أقول إنسانة ومصرية: لماذا تخرب المدن العامرة الزاهرة؟ لماذا تخريب المعاهد والقصور والحدائق؟ لماذا الهمجية؟

حين تبعت مصر الآخرين لها فى فترات من تاريخها، أضافت إليهم بنت وعمرت وعلمت ولا تزال آثارها شاخصة إلى اليوم شاهدة بما أدت وأوفت.

***

سحرت القاهرة الرحالة «ناصرى خسرو» (وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف، حتى ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة، وليس من الآجر أو الأحجار العادية. والمنازل كلها منعزلة. بحيث أن الأشجار القائمة فى أحدها لا تصل أغصانها إلى المنزل الآخر).

ومن بعده، وقع «ابن زولاق» فى بحران من الحماسة السكرى ومثله «القضاعى» و «ابن عبدالظاهر» و«المقريزى» و «المسبحى» وعبداللطيف البغدادى، وياقوت الحموى، وابن جبير الأندلسى ثم الرحالة ابن بطوطة الذى سبح فى وصفها ثم سبح ببهائها ثم ظلت حقيقتها أكبر من الكلمات.

ثم.. دهاها فى حاضرها ما دهاها من تغيير وعشوائية وتعديات على حرماتها جعلت مأساتهاالحضارية أكبر من الكلمات.. أيضا.

ويطنب أبن زولاق و «المسبحى» و «القضاعى» و «المقريزى» فى وصف بذخ الفاطميين والقصور التى حليت أبهاؤها بالذهب والجواهر.. والحدائق والبساتين والميادين والمساجد والمعاهد مما جادت به عليهم مصر الزاخرة وحاضرتها القاهرة.. ولكن أحدا من هؤلاء المؤرخين لم يقل إن الذى فعل هذا هو الشعب المصرى الصاحب الحقيقى للجواهر واللآلى، التى تلألأت، قبلا، فى مآقيه دموعا.. وعلى جبينه حبات عرق.

ولا يزال الكُتاب يسمون الأشياء بغير أسمائها فيظفر حكامه على مر العصور بكل شىء تاركين له، القيراط الخامس والعشرين.. فى الجنة التى أطنب رجال الدين، إلا قلة، فى نعيمها كأنهم يمنون الشعب المصرى بجراء الصابرين.

مرة أخرى أعود إلى ماضى القاهرة من باب الـعزاء عن الحاضر.. لقد وصف المقريزى وديج وأفاض فى أمراء القاهرة فى وقته (وتحوى مـصر القاهرة من الجوامع والمساجد، والربط والمدارس والزوايا، والدور العظيـمة والمسـاكن الجليلة، والمناظر البهـيجـة، والقصـور الشامـخة، والبسـاتين النضرة، والحمـامات الفاخرة، والقيـاسر المعمورة بأصناف الأنواع، والأسواق المـملوءة مما تشتهى الأنفس، والخانات المشحونة بالواردين، والفنادق الكاظة بالسكان، والترب التى تحكى القصور، مما لا يمكن حصره ولا يعرف ما هو قدره) جـ ١، ص ٣٦١.

***

ويتوج الوصف والوصافين، ابن خـلدون فيهتف هتفة لم تزل بعد سـتة قرون داوية الصدى: (٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م):

(رأيت حـاضرة الـدنيا، وبسـتـان العالـم، ومحـشـر الأمم، ومدرج الذر من الـبشـر، وإيوان الإسلام، وكـرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جـوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقـه، وتضىء الدور والكواكب من علمائه، قـد مثل بشاطىء بحـر النيل نهر الجنة، ومدفع مـياه السماء، يسـقيه العلل والنهل سـيحه، ويجبى إليـهم الثمرات والخيرات ثجـة، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم).

هذه الجميلة الساحـرة الآسرة كم قاست من (الشدة العظمى) فى عصر المسـتنصر الفاطمى.. كم عانت من صبيانيات «شاور» و «ضرغام» وحرق شاور للمدينة وحرائق الإنتقام فى عهد الملك الناصر محـمد بن قلاوون والأوبئة المروعـة سنة ١٢٠١، ١٢٩٦، ١٣٤٨ الذى بلغ من شدة الأول أن سموه (الفناء الكبير) والذى هز وجدان الغرباء فوصفه عبداللطيف البغدادى وصفا مؤثرا.

كم كـابدت الجمـيلة من التحـاريق عام ١٤٠٣، ١٤٤٩، و١٤٦، ثم وباء ١٥١٧ أى دخـول الترك الذى غطاه ابن إياس فى فصول تقطر أسى ثم الفرنسيين ١٧٩٨ ثم الإنجليز ١٨٨٢ وفى كل عصر إلى يومنا هذا «انكشـارية» يتخطفون الناس والأرزاق ويغريهم نـوم النواطير فيبتسم الثعالب وما تفنى العناقيد.

ولكنهم جميعا زائلون وتبقى حقيقة كبرى هى مصر الخالدة.

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان عن عصر محمد على (عادت يد الإنشاء والتعمير تعمل من جديد فى العاصمة القديمة.. عادت قاهرة العصور الوسطى، سيرتها فى زعامة مدن الإسلام.. وتمتاز على هذه الحواضر جميعا بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنبا إلى جنب) استغرقتنى القاهرة.

نأتى إلى الفصل الثانى وقد عقده المؤلف عن مؤرخى الخطط من ابن عبدالحكم إلى المقريزى، ومن هؤلاء محمد بن يوسف الكندى، وابن زولاق الليثى المصرى، والأمير مختار عز الملك المسبحى والقضاعى والعينى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى، والسخاوى، وابن إياس، وابن أبو السرور البكرى والجبرتى.

ويقف المؤلف وقفة خاصة عند صاحب الخطط التوفيقية على باشا مبارك:

(ولم يشهد تاريخ الخطط منذ المقريزى، مجهودا فى الطرافة والإفاضة كمجهود على باشا مبارك، بل لقد جاءت «الخطط التوفيقية» من بعض الوجوه أتم وأوفى من خط المقريزى.. فتناول بعد القاهرة، جميع المدن والقرى المصرية بإفاضة وترجم كثيرا من أعيانها فى مختلف العصور.

وكان تمكنه من الهندسة والجغرافيا والتخطيط (التبوغرافيا) يمده بكفاية خاصة للقيام بهذه المهمة.. فما من أثر أو مسجد أو دار أو خطة أو شارع أو ميدان، فى عصر القاهرة القديمة إلا حقق موقفه وأبعاده فى القاهرة المعاصرة، بوضوح يثير الإعجاب).

أقف بدورى عند الخطط التوفيقية ودلالتها عندى..

عشرون جزءا فى خمس مجلدات كبيرة فيها من التحقيق، والشرح، والمقابلة، والمضاهاة، والبحث، والمتابعة، همة يقظى وجهد موصول، وجلد حديد، وصبر عنيد، وعتيد.

إنها بطولة روحية.

ظهرت أجزاؤها تباعا خلال سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨-١٨٨٩م)

معنى هذا أنه بدأها فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر أى منذ دهم الإحتلال البريطانى مصر وكأن عمله هذا أو هو كذلك، رد مصر على الإحتلال إنها تحيا.. أنها لا تموت، أنها تلملم ذاتها وتحققها.. تحققها علميا وتحققها فى الحياة بالعمل والعلم والتأريخ والكتابة.

وانتهى الإحتلال.. راح. انداح.. وبقيت فى البواقى الخوالد.

الخطط التوفيقية..الخطط المصرية

إنها شخصية مصر

***

انتهى الكتاب الأول.

أما الكتاب الثانى فيستهل الفصل الأول عن (مصر فى عهد عمر ابن الخطاب).

وقد جاء فى هذا الفصل أن (قرى مصر أحصيت من أجل الجزية فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية أعنى ضعف ما تحتوى اليوم.

وبلغ من وجبت عليه الجزية السنوية من القبط ستة آلاف نفس وعلى رواية أخرى ثمانية آلاف). جـ ١. ص ٨١.

أقول هذا ردا على من يقولون إن المصريين المسلمين -وهم الملايين- هم أولئك الذين أرادوا أن يتخففوا من الجزية.

ويدحض هذا ويفنده أن الأقباط الذين وجبت عليهم الجزية كانوا بضعة آلاف فقط إذن الكتلة الكبيرة أو القاعدة الكبيرة من الشعب هى التى دخلت فى الإسلام بدون إعتبار الجزية.

على أن الجزية «ديناران» على رب الأسرة فقط ومقابل حماية الثغور أى الإعفاء من الجندية بينما الإسلام يفرض الزكاة ثم زكاة المال ثم حماية الثغور وكلها أعباء تفوق كثيرا «الدينارين» إذن أسلم ملايين المصريون لأسباب بعيدة كل البعد عن عامل الجزية.. وقد فصلت هذا فى كتابى (شخصية مصر) وإيرادها هنا يباعد بينى وبين الكتاب الذى نحن بصدده اليوم.

وعقد المؤلف الفصل الثانى من الكتاب عن (صور من استقلال القضاء).

والفصل الثالث عن الأميرة المصرية قطر الندى وكانت حياتها على قصرها، إذ رحلت فى الثانية والعشرين من عمرها.. مأساة خليقة بالإعتبار. الأعوام الثمانية الأخيرة من عمرها، ملحمة وهى لاتزال إلى اليوم ماثلة فى الأدب الشعبى

وينتقل المؤلف فيما بين الفصل الرابع، والفصل الثامن من الدولة الطولونية إلى الإخشيديه، إلى الفاطمية وما لحق بها من أساطير بدأت بالمعز نفسه فلم يك غريبا أن يعقد الفصل الثامن عن (عصر الخفاء فى مصر الإسلامية).

(كان النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى، عصر الخفاء فى مصر الإسلامية، كما كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا وكما امتاز عصر الخفاء الحديث بالتعلق بالمجهول والخارق، والتطلع إلى مدارك الغيب، وذيوع الدعوات الإلحادية، وقيام الجمعيات السرية المختلفة، فكذلك يمتاز عصر الخفاء فى مصر الإسلامية بنزعة إلى استكشاف الغيب، وإحياء عصر الخوارق، وقيام الفرق الدينية السرية، وبث الدعوات الإلحادية المغرقة. ويرجع هذا التشابه بين العصرين إلى ظاهرة تاريخية معروفة، هى أن عصور الخفاء فى جميع مراحل التاريخ، تلتقى جميعا برغم إختلاف الظروف والأحوال فى نقطة واحدة هى التعلق بالخارق والمجهول، وهى قبلة يتجه إليها الذهن البشرى فى جميع العصور والمجتمعات) جـ ٢. ص ١٢١.

وكانت الذروة كما يقول المؤلف فى أواخر عصر الحاكم حيث إتخذت دعوةالخفاء صورة إلحادية.

(ثم كان إختفاء الحاكم على ذلك النحو الخفى المدهش الذى انتهى إلينا وانعدام كل أثر يدل على مصيره، أو يلقى ضوءا على ظروف إختفائه أو مصرعه.. فكان ذلك عاملا جديدا فى إذكاء شغف الخفاء والتطلع إلى مدارك الغيب، وإذكاء الدعوات السرية المغرقة فى نفس الوقت. حتى لقد زعم بعض الغلاة أن الحاكم قد رفع إلى السماء). ص ١٢٤.

ويقرر المؤلف بين ظاهرة الخفاء وبين ذيوع (الماسونية) فى جميع أنحاء أوربا واستقائها من الدعوات اليهودية التى كانت (ذات أثر كبير فى توجيه حركات الخفاء المشرقية).

وفى آخر هذا الفصل يعقد المؤلف مقارنة بين الشرق والغرب والفرق بين عصر الخفاء هنا وهناك (فقد كانت دعوة الخفاء فى المشرق يغلب عليها العنصر الروحى. وكانت تميل إلى حشد المؤمنين، وتكوين العقائد والمبادىء قبل كل شىء.. ولكنها كانت فى الغرب يغلب عليها العنصر المادى وكانت أكثر ميلا إلى إجتناء الثمرات المادية).

إنه الغرب.

وعقد المؤلف الفصل العاشر عن (مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبداللطيف البغدادى)

ولما كان عبداللطيف البغدادى قد عاش فى مصر أعواما طويلة فقد عمر وصفه لها بالتصوير والملاحظة والطرافة والصدق حتى فى مواضع النقد.

فإذا تكلم عن النيل وعن منابعه ومصبه وزيادته ونقصانه فإنه يتكلم كما يقول المؤلف بأسلوب الجغرافى العالم.

وإذا تكلم عن الآثار الفرعونية فإنه يرسم لها صورة من أقوى الصور وأبدعها.

ويسجل المؤلف قضية خطيرة وهى أن الآثار المصرية القديمة، سواء فرعونية أو يونانية أو رومانية، كانت أيام الفتح الإسلامى أضعاف ما كانت عليه يوم شهدها العلامة البغدادى).

ويعلل هذا بأن الفاتحين الذين بهرتهم آثار مصر الخالدة كما بهرتهم حضارتها، لم يحسنوا رعاية هذا التراث المجيد الذى لم تخلفه حضارة أخرى من حضارات الأرض جميعا.

فالبعض بفهم خاطىء للدين، إعتبرها وثنية وغاب عنه أن مصر أول من آمن بالتوحيد وقال بالضمير والثواب والعقاب والبعث والجنة والنار والعالم الآخر.

والبعض الآخر استولت عليه فكرة إستخراج الأموال والكنوز وهؤلاء كانوا يسمون مصر (أرض الدفائن)

والأمثلة كثيرة مثيرة تحدث عنها طويلا المقريزى بما يدمى القلب.

وفى الفصل الحادى عشر تحدث المؤلف عن الحرب (الصليبية الرابعة فى مذكرات (فيل هاردوان) هذه المذكرات وإن لم تقل الحقائق كلها إلا أن الحوادث التى ترويها تكشف عن بعض الأسباب الحقيقية يقول المؤلف: (إن حرص الكنيسة فى أوربا- على سيادتها الزمنية، وعملها على تمكين سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية، وتحويل أولئك الأمراء عن مناهضتها ومقاومة عدوانها على سلطانهم، ثم إضطرام أولئك الأمراء بإحراز السلطان والثورة فى بلاد المشرق، كانت هى العوامل الأولى والغالبة فى تحريك هذه الحملات البربرية على الإسلام، وإن إنقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الإسلام. لم يكن إلا حجة ظاهرة تخلب ألباب المؤمنين من البسطاء والكافة) ص ١٤٢.

أما الكتاب الثانى فى تاريخ مصر الإسلامية القسم الثانى فيتحدث فى الفصل الأول عن الشدة العظمى والفناء الكبير وفى الفصل الثانى عن (رواية مصرية عن ممالك الغرب والجمهوريات الإيطالية فى القرن الرابع عشر).

والفصل الثالث عن (العلائق الدبلوماسية بين مصر وجمهورية البندقية.

والفصل الرابع عن العلائق الدبلوماسية بين مصر وأراجون على ضوء الوثائق التاريخية.

والفصل الخامس عن (ابن عربشاه مؤرخ تيمور وكتابه عجائب المقدور).

وعقد المؤلف الفصل الخامس عن (المجتمع المصرى فى القرن الخامس عشر). وهو عصر انحدار.

فالمقريزى وجمال الدين أبو المحاسن تغرى بردى، والسخاوى، وابن إياس، شاب الأسى على مصر كتاباتهم. يقول المقريزى (تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور، وكثر الجور عن أنيابه، وقلت المبالاة، وذهب الحياء والخشية من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء، وتعددت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجاب، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى).

وشبيه بهذا ما كتبه «الجبرتى» فيما بعد.

أنا هنا لا أسرد تاريخا ولكنى أقف عند ظاهرة خطيرة فى الوقت الذى نتنادى فيه بإعادة بناء الإنسان المصرى وبإعادة تخطيط التعليم أقول: يتحتم أن تعلم المدرسة المصرية، الإنسان المصرى صغيرا حقوقه والحرص عليها، وأن يعلم المسجد المصرى الإنسان المصرى، كبيرا، حقوقه والحرص عليها.. فلا تعيد المدرسة وتزيد فى الخطب الملوكية ولا يعيد المسجد ويزيد فى العقاب والثواب فإن الإيمان الصحيح كرامة.. وإن الطاعة لا تكون إلا فى مرضاة الله.. فإذا انتفى شرطها، انتفت وكان انتفاؤها، دينا.

لو أن الإنسان المصرى عرف حقه لحسب الحاكم حسابه فى أى عصر من العصور وخشيه خشية يعتدل بها الميزان، فتختفى من التاريخ المصرى الطبول والقماقم والسرقات والإتاوات والنزوات، والنهب، والوهب وينتهى تاريخ ويبدأ تاريخ.

يقول ابن إياس فى (بدائع الزهور) أنه (فى رجب- ٨٩٥ هـ كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد، وكان عمره يومئذ نحوا من أربع سنين وأشهر، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية، وكان من نوادر المهمات، فاجتمع به سائر مغانى البلد، ورسم السلطان أن تتزين القاهرة فزينت زينة حافلة، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد).

كم دفعت مصر فى الختان، والأفراح والإستراحات.

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان:

(هذه الحوادث، بل هذه الصغائر وأمثالها، هى كل ما استطاع المؤرخ أن يدونه عن حياة مصر العامة فى القرن الخامس عشر، وقد تشعر وأنت تقرأ سيرة هذا العصر أنك فى دوار، إذ تسير من صغيرة إلى مثلها، ومن سخف إلى غيره، فى أعوام بل أجيال متعاقبة. ولا تقرأ فى أخبار الدولة ومهامها سوى نقمة السلطان أو رضاه، على حاكم أو كبير، وقدوم كبير إليه بهدية فخمة، أو خلعه على من يصطفيه، ومصادرته لمن يتغير عليه، ولا تقرأ من الحوادث الإجتماعية إلا إقامة مولد، والإحتفال بزواج أو ختان أو أمثالها، ولا تجد فى حياة الشعب سوى الضجيج والمرح، والهتاف والطرف، والذعر والإستكانة، والجمود والسخرية).

***

ما أشبه الليلة بالبارحة. والمخيف فى هذه الظاهرة أنها تقترن دائما فى التاريخ المصرى بالهاوية.

عصور الإنحدار الإجتماعى والسياسى تسلم مصر دائماإلى الغزو الخارجى ويحدث أكثر من مرة أن يقابله الشعب المصرى باللامبالاة لأن القهر الداخلى لا يترك له شيئا يدافع عنه.. ما الفرق بين القهر الخارجى والقهر الداخلى.

لقد بلغ الأمر بالبعض، أحيانا أن يرى فى النكبة إنتقاما له من القدر، وإيذانا بالخلاص.. وبالطبع لا يكون خلاص أو نجاة.. والذى يحدث أن الشعب المصرى يدفع الثمن غالبا فى الحالين ولو عرف كيف يوقف البغى فى بدايته قبل أن يستفحل لوفر على نفسه كثيرا ولكن.. وعقد المؤلف الفصل الثامن عن (الفتح العثمانى فى رواية ابن إياس) ولو أنه حمل عليه، وحين سجل له أنه تلميذ السيوطى لم تفته المقارنة فقال (كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحى العلوم والآداب فى عصره، ولكن شتان بين الذهنين) ص ٢١١.

وعقد المؤلف الفصل التاسع عن (مصر فى خاتمة القرن السابع عشر كما رآها العلامة عبدالغنى النابلسى).

أما الفصل العاشر فعن (مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كما يصفها الرحالة سافارى)

و «لود إيتان سفارى Savary جاء مصر سنة ١٧٧٦ م وأخذته آثار مصر الفرعونية فندت عنه هذه الهتفة:

(إن من يرى الآثار التى تحتفظ بها مصر يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدت صروحه أحداث الزمن. فهو لم يكن يعمل إلا للخلود، وهو الذى أمد هو ميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبغوها على بلادهم).

وهذا الرأى لمحة من كتابه Letters sur L'Egypte

الكتاب الثالث يدور حول (صور من الأدب المصرى) وقد عقد الفصل الأول عن (حلقات الأدب فى الفسطاط)

لقد فتحت مصر فى القرن السابع الميلادى سنة ٦٤١م - ٢١ هـ.

ولم يكد يمضى عليها قرن حتى كانت مدينة الفسطاط (مركزاً للتفكير والآداب، يحج إليها كثير من أعلام المشرق. وكانت مصر قد أخذت تتبوأ مكانتها الفكرية والأدبية بين الأمم الإسلامية).

ثم تكلم المؤلف عن أبهاء الفسطاط الأدبية أى الصلونات الأدبية وكانت ملتقى الأدباء من المشرق والمغرب ينضمون إلى أدباء مصر ويقول المؤلف عن هذه الحلقات (كانت فى بدايتها دينية فقهية، وكانت لها أهميتها فى تمحيص السنة والرواية).

وكان الأمام الشافعى نزيل الفسطاط وعاش بها سنيه فى مصر من ١٩٨ هـ ٢٠٤ هـ كان (قطب الحركة الفكرية فيها، وكعبة الصفوة من فقهائها وأدبائها، يجذبهم إليه غزير علمه ورفيع أدبه، وبارع خلاله. وكانت حلقات الفسطاط الأدبية شهيرة قبل مقدمه، ولكنه أسبغ عليها بهاء وسحرا وروعة).

وفى الفسطاط تفتحت موهبة الشاعر أبى تمام الطائى وكان يقيم بها.

واشتهرت الفسطاط بمجالس الجمعة التى كانت تعقد عصر الجمعة من كل أسبوع (كانت تعتبر موسما أسبوعيا يغص المسجد فيها بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء والنظارة وفيها كانت

البحوث الكلامية والمناظرات الأدبية والمطارحات الشعرية والرواية التاريخية، تنظم فى حلقات فرعية أو متعاقبة).

وقد أسهب فى وصف هذه الحلقات ابن زولاق فى كتاب (سيبويه المصرى) (منه مخطوط بدار الكتب يرجع إلى القرن الرابع الهجرى).

ثم جارت السياسة على الفسطاط فى الربع الثانى من القرن الثانى الهجرى واستعادت الفسطاط مكانتها فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى على يد الدولة الطولونية ثم تألقت من جديد فى اوائل القرن الرابع وعادت بأيامها ولياليها التى يقف عندها طويلا ابن سعيد المغربى فى كتابه.

(المغرب فى حلى المغرب).. هذا حين كانت بغداد تتهاوى.

ظلت الفسطاط عصورا، متألقة حتى بعد أن قامت القاهرة تزهو بالأزهر، إستطاعت الفسطاط أن تنافس القاهرة، وتعلو مصر. وتزهو بالمدينتين معا.

وبعد هذا قامت المدينة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة قبالة الفسطاط سنة ٦٣٨ هـ فلم تخمل الفسطاط بل انسحبت العناية عليها.

ومضى الفصل الثالث بـ (قصة غرام فاطمية) أما الفصل الرابع فعن (معارك قلمية مصرية فى القرن التاسع الهجرى)

وعقد المؤلف الفصل الخامس عن (الروايات الكنسية والنصرانية وقيمتها كمصادر للتاريخ الإسلامى).

والفصل السادس عن (خواص مصرية مميزة للأدب العربى فى مصر)

الأدب المصرى الإسلامى يمكن اعتباره شعبه قائمة بذاتها فى تراث الأدب العربى.

لقد كان هناك أدب أموى وأدب عباسى وأدب أندلسى على كل منها طابع المجتمع الذى عاش فيه. (ولكن الطابع الخاص الذى أتخذه الأدب العربى فى مصر لا تقف عوامله عند هذا الحد، بل يرجع إلى عوامل محلية أخرى، تجعله من حيث الخواص واللون، أشد ظهورا وقوة).

وقد حدد المؤلف هذه العوامل:

(أولا وأهمها ما يتمتع به المجتمع المصرى منذ عصر الفراعنة، من حيوية غريبة كانت دائما تغلب كل ما هو أجنبى، وتطبعه بطابعها القوى، فترى آثارها ماثلة فى العهدين اليونانى والرومانى رغم ما كانت تتمتع به كل من اليونان وروما من حضارة عظيمة. وقد كان أثر هذه الحيوية أقوى وأشد فى المجتمع الذى أقامه الإسلام فى مصر لأن الفاتحين العرب تلقوا فى مصر تراث حضارة عظيمة ولم تكن الحضارة الإسلامية قد تفتحت بعد.

* منها موقع مصر الجغرافى وجوها الخاص ونيلها الخالد وروعة مناظره الطبيعية.

* ومنها توسط مصر بين الشرق والغرب وأنها لبثت عصورا طويلة تقبض منذ الحروب الصليبية على زمام الدبلوماسية الإسلامية فى البحر المتوسط.

* ومنها أن مصر فى هذه الحروب كانت الحاجز الصلد الذى تكسرت عليه فورات هذه الحروب البربرية.

* ومنها آثار البيئة الشعبية المصرية فى تطور الأدب العربى.

* الذهن المصرى وما ابتدعه من صنوف وطرائق خاصة فى التفكير والأدب.. ومن المسلم به أن مصر لبثت تتولى قيادة التفكير العربى فى المشرق عصورا طويلة.. (فقد وفق الذهن المصرى منذ القرون الأولى للهجرة إلى إبتداع صور فريدة فى الأدب العربى نسج على منوالها كتاب المشرق والأندلس فيما بعد. وقد أخرجت مصر فى الشعر والنثر والنقد الأدبى شخصيات فريدة من حيث خواصها وطرائقها قلما تماثلها شخصيات أخرى فى تراث الأدب العربى).

ويضيف المؤلف أن من هذه العوامل (نوعا من الإلهام الذى يصعب ضبطه وتحديده: هذا الإلهام الذى يوحيه الشعور القومى.. واستطاع أن يخلق لمصر من تراث الإسلام والعربية تراثا قوى المصرية وما يزال الذهن المصرى إلى يومنا يسبغ هذا الطابع المصرى العميق على آدابنا).

***

الفصل السابع عن (حركة الترجمة والتأليف فى قرن من تاريخ مصر الحديث).

وتتصدر هذا الفصل بالطبع أسماء مضيئة مثل: رفاعة الطهطاوى.

وكم لمصر من علامات مضيئة على طريق العروبة والإسلام والحضارة على مسيرة التاريخ الإنسانى قاطبة.

المرأة المصرية القديمة

ألف هذا الكتاب الطبيب النابه الدكتور محمد فياض

وقد كتب للكتاب إهداء من أروع الإهداءات التى قرأتها

إلى المرأة المصرية

إلى كل إمرأة

إلى كل أم قدمت لمصر يدا تبنى، وساعدا يحمى

إلى كل إمرأة أسعدنى أن قدمت لها - من علمى وخبرتى الطبية- كل ما أعانها على أداء رسالتها.

إلى عشرات الآلاف من البنات المصريات اللاتى جئن إلى الحياة على يدى.

إليهن جميعا، أقدم حصيلة قراءتى عن المرأة المصرية القديمة التى كانت وراء أعظم حضارات العالم القديم.

إليهن

وإلى زوجتى

وإلى أمى

أهدى وأقدم هذا الكتاب

***

قرأت هذا الإهداء، مرات

إنه إهداء إلى المرأة المصرية التى أسهمت فى صنع الحضارة على هذه الأرض الولود.. أم الدنيا لأن الدنيا بدأت بحضارتها التى أبدعتها على غير مثال.

وهو إهداء المرأة المصرية، بدورها، إليه طبيبا وعالما ونبعا من حنان فهو الذى وقف إلى جانبهافى أدق الساعات.. وهو الذى جاءت عشرات الآلاف من البنات المصريات إلى الحياة على يده الرحيمة الكريمة السخية بالصبر والراحة والطمأنينة.

إنه نبع من الشمائل فياض.

بقى إهدائى المتواضع إليه فعلى يده المسعده جاءت ابنتى حبيبتى

ثم شبت وعلى يده الواعده جاءت ابنتها حبيبتى

وإهدائى لم أكتبه اليوم بل كتبته منذ خمس سنوات:

فـاض الرجـاء علـى يديك ونورا ... ورآك أول من رأس فـاستـبشـرا

فـيـاض تحـبـو مـن يديك زهورنا ... وتدب فـوق الأرض حـتـى تكبـرا

أطلعـت فـينانا كـبـــر عم زهرة ... ثم استـوت وغـدت عطاء مـثمـرا

وعلى يديك أتـت بأخـرى مـثلهـا ... فـــينانـة جل الذى قـــد صـــورا

لقـد أسعـدنى الحظ أن يكون عملى، كطـبيب وجـراح نسائى، مع المرأة عـمومـا، ومع المرأة المصرية بوجـه خاص. وقـد ثبت لى أن كثيرا من نظريات طب المرأة والولادة ومـا إلى ذلك كان معروفا بل ومستخدما عند المصريين القدمـاء. وقد خرجت بهذه الخلاصة من قراءات واسعة، عبر آلاف الصفـحات، فى العديد من الكتب، بـالعديد من اللغات التى كـانت تتحدث عن الحياة فى مصـر الفرعونيـة القديمة بشكل إجـمالى.. ولكن دون تخـصيص جانب محدد يتعـرض للمرأة المصرية القديمة وأحوال حياتها).

إن الذى أمـامنا ليس مجـرد كتـاب فى محـيط مـحدود من المراجع ولكنه خـلاصة قـراءات واسعة. إنه صورة معمقة للمرأة المصرية سليلة أعرق الحضارات طرا.. فإن مقياس الحضارة، مكان المرأة فيها.. ولم تكرم حضارة من الحضارات، المرأة، كالحضارة المصرية ثم الإسلام.

وبعد هذا يتواضع الدكتور فياض التواضع النبيل وكم يكون نبيلا أن يتواضع الكبير فى قمة العطاء وفى قمة الكبرياء النفسى والعلمى.

هل تصدق أن طبيبا هو علامة مضيئة فى ميدانه يقول بعد كتاب كبير حافل:

لم أقدم من عندى سوى النذر اليسير من المعلومات، وشذرات قليلة من أفكار وملحوظات.. مستخدما ذلك فى إعادة تـقديم ما قرأته بإمعان فى كتب قيمة، وما استمـتعت به من خلاصة جهد أساتذة متخصصين كبار).

وصف الدكتور فياض، المصرى القديم من واقع الرسوم فى المعابد والقصور والجداريات والآثار فى القبور فى أسلوب يغلب عليه فى بعض المواضع الطابع الأدبى.. فحين الاضطرابات (كان سهلا على المصريين أن يعيدوا السفينة إلى مسارها الصحيح بعد أن تنقشع العاصفة).

حب الأرض والإلتصاق الدافىء بها فى القرب، والحنين الجارف إليها، فى البعد حمى الأصول المصرية من الذوبان فى الآخرين.. كان هذا الحب سياجا عازلا وجاءت الصحراء من الجانبين فأكدت هذه العزلة.

يقول الدكتور فياض:

كانت المرأة المصرية عنصرا أساسيا فى الحضارة المصرية

أقول: يعزو بعض المؤرخين، الحضارة المصرية إلى نعيم الرجال فى بيوتهم فأعطوا، الحياة، خارجها من نفس راضية مستقرة وقريرة.

ومن الطريف قول الدكتور فياض فى سياحة بين الماضى والحاضر

كان المصريون يعتقدون أن السن الملائم للحياة هو ١١٠ سنوات (مائة وعشرة)- الحقيقة أنهم لا يريدون أن يتركوا مصر وهذا سر حلمهم بالخلود وعملهم له وكانوا يدعون بذلك فى صلواتهم. ويعتقد أن متوسط سن الإنسان الفرعونى كان ٦٣ سنة.. وكان معدل المواليد مرتفعا.. ويبدو أن أهل مصر لم يغيروا عادتهم منذ القدم حتى الآن، فى التكدس السكانى، فى عدد محدود من المدن والقرى، وترك بقية رقعة أرضهم الشاسعة خالية

ويقول (كان الإنسان المصرى القديم إنسانا هادئا وحكيما إلى درجة غير عادية وهذا ما يؤكده علماء المصريات.

وكانت المرأة المصرية ككل أبناء شعبها، هادئة الأعصاب، مستريحة، شامخة مفتونة بالحياة ويكفيها فخرا هى وشعبها أن تاريخهم خال من الهمجية والبربرية، كغيرهم من الشعوب.

ويقول: (كانت المرأة المصرية تتمتع بحقوق مساوية للرجال، ليس على الورق، وإنما فى الواقع فعلا..وذلك بعكس ما كان عليه الحال فى معظم الدول القديمة، مثل اليونان أو الرومان.. ومع أن هذه الحقيقة تعتبر أمرا غير مألوف بالنسبة لأوضاع الشرق، فإننا نجدها منعكسة بوضوح تام فى الوثائق والكتابات، وكذلك فى الأعمال الفنية.

إن جميع المصادر تؤكد أن المرأة المصرية كانت دائما محل إحترام

أقول هل أدل على الاحترام والمكانة من أن المرأة المصرية بلغت فى مصر دون سائر العالم القديم بل الحديث أن صارت نقيبة الأطباء؟

إن رمز الكتابه، إمرأة هى سشات

ورمز الجمال إمرأة هاتور

ورمز الحنان إمرأة إيزيس

لقد حكمت المرأة المصرية وتولت العرش حتى فى وجود إخوتها الذكور مثل حتشبسوت.. لقد كانت الملكة بنفسها وليس لأنها زوجة ملك.

يقول الدكتور فياض (فى بعض الأحيان كان التركيز يتم عند ذكر النسب على الأم أكثر من الأب)

أقول: وفى الإسلام التركيز على الأم كان كثيرا ومقدما.. ويوم القيامة ينسب الإنسان إلى أمه.

ويسجل الدكتور فياض أن المساواة الإجتماعية بين المرأة والرجل، يمكن تتبعها حتى عصور ما قبل التاريخ المكتوب.. وقد وُجِدَ فى حفائر الجبانات أن المرأة كان لها الحق فى أن تدفن فى مقبرة خاصة بها، مثل الرجل، مع وجود القرابين المناسبة والتماثيل والشواهد. وقد وجد أن مقابر كثيرة لسيدات من طبقات إجتماعية مختلفة، مثل الملكات والأميرات والوصيفات وزوجات العمال والموظفين لا تختلف فى تجهيزاتها الداخلية عن مقابر أزواجهن)

ويقول :

وكان حق المرأة القانونى الكامل- وبخاصة حق إدارة أعمالهاالخاصة الذى يعتبر أحد الأعمدة الأساسية للمساواة- يشمل جميع المجالات القانونية.. كان من حقها أن تمتلك وتتصرف فى الضياع والخدم والعبيد والمال والأشياء الثمينة، بحرية واستقلال تامين. كما كانت تستطيع إبرام العقود بجميع أنواعها، وأن تكون شاهدة على عقود الزواج، وأن تكتب الوصايا وأن تمنح العبيد حريتهم، أو حتى أن تتبنى أى شخص.

وكان للمرأة الحق فى أن تتقدم إلى المحكمة النظامية بشكوى أو ترفع فيها دعوى، وفى هذا نجد أمثلة كثيرة، نقرأ فى إحداها- موضوع إحدى المنازعات الخاصة التى قدمت للمحكمة المحلية فى غرب طيبة:

فى هذا اليوم تقدم الدعوى من المدعية المواطنة إيزيس ضد العمال:

خا- إم- إربى- وخا إم فيزى، وآمون نخت، وهى كالآتى:

فليعطونى أماكن زوجى با - نخت. المداولة. حكم القضاة:

«المرأة على حق. فلتأخذ أماكن زوجها».

وهذا عكس القانون اليونانى تماما. ص ١٩

وكانت المصرية تولى بيتها إهتماما كبيرا لتجعل منه مكانا جميلا يتمتع بالهدوء والجمال. ومن بعض المناظر المرسومة، نجد أن المصرية كانت تعتبر الحديقة متعة خاصة فى بيتها، فتهتم بزراعتهاوإنبات الورد بكثرة والإكثار من الأشجار للإستفادة من ظلالها ومما تثمره من فواكه وخضروات. وكان ضروريا أن تتوسط الحديقة بركة صغيرة، كنوع من الزينة وكمورد للماء.

أقول: مصداقا لقول الدكتور فياض، رأيت فى المتحف المصرى، نموذجا للبيت المصرى- جنوب الدير البحرى رقم ١١ القاعة ٢٧ بالدور الثانى بالمتحف صورة طبق الأصل لما أصبح عليه البيت الإسلامى.

ما رأيته فى المتحف المصرى الباب الكبير ثم حديقة ونافورة وسقيفه وصفين من الأشجار وعلى طول المسافة من الباب مرورا بالحديقة توجد حجرات على الجانبين كمخازن أو إستقبال يستقبل فيها رب البيت ضيوفه بعيدا عن البيت بحرمته وذاتيته.

وبعد السقيفة يبدأ البيت.

إنى أعتقد بعد الذى رأيته أن البيت الإسلامى بطرازه التقليدى مأخوذ من البيت المصرى القديم كما أخذت النجوم مصر فالإلهه نوت جسمها مغطى بالنجمة الخماسية وقلادة الأميره خنوميت فيها النجمة الخماسية والنجمة السداسية والنجمة الثمانية.

وقد أخذ الإسلام من حضارة مصر فى سماحة وتواضع نبيل بدون إدعاء كاليهود أو انتحال أو عنجهية مصطنعة لتغطية مركب النقص وعقده.

يقول فرويد وهو من أكبر علمائهم (إن عقدة اليهود سبق مصر فى الحضارة) يقول الدكتور فياض (كانت هناك بيوت على شكل فيللات، تتكون من دورين فى طيبه. ومدخل الغرفة الرئيسية مزين بالخشب المعشق.

وصف (رع يا) فيللته التى أقامها على شاطىء النيل فى جمالها ص ٥٩ وهدوئها بقوله (الفرح يسكن داخلها).

وكان فى البيت المصرى مجموعتان من الأطباق إحداهما للإستعمال اليومى والأخرى من الألباستر للضيوف.. أى طقم.

أقول إن أثاث الملكة (حتب حرس) أم خوفو يدل على المرأة المصرية كانت مترفة رقيقة تتحلى وتتعطر وليست ركيكة تتوسل بالبدائيات كتب ألدز هكسلى أن البيت الإنجليزى فى عصر الملكة فيكتوريا كان به كرسى واحد ذى مساند (armchair) لجلوس رب الأسرة فقط.. بينما مصر صنعت أفخم منه للملكة حتب حرس.. للمرأة فقط.

يقول الدكتور فياض إن البيت المصرى القديم كان يعنى بدورات المياه والأدوات الصحية وقد وجد فى معظم البيوت جناح يتكون من حمام وحوض غسيل له مدخل من إحدى الغرف الرئيسية!!

ويقول (لم يكن هناك بيت يخلو من تكعيبة تتدلى منها عناقيد العنب.

وكانت ملابس المرأة المصرية من الكتان الذى تؤثره لملاءمته جو مصر.. ومع العصر الوسيط دخلت الجونلة الطويلة (ماكسى) ذات الثنيات (البلسيه).

ويقف الدكتور فياض طويلا عند فنون التجميل والزينة التى تفننت فيها المرأة المصرية القديمة يقول:

كانت المرأة المصرية القديمة -بإجماع المصادر- جميلة، تتمتع بقدر نادر من الجمال، وتوفر لنا الآثار التى عثر عليها، والمنقوشة على الجدران، كنزا كبيرا نستدل منه بسهولة على الأساليب التى كانت المرأة المصرية تتبعها لإضافة اللمسات الرقيقة إلى جمالها، ونتعرف على الأدوات والمواد التى كانت تستخدمها فى عمليات التجميل والتى لا تقل إتقانا عن أشهر مستحضرات التجميل العالمية الحديثة.

وكانت المرأة المصرية تتمتع بقوام رشيق، وقد تمشوق بل يمكن القول إن السمنة كانت من المظاهر غير المألوفة، وكانت مدعاة لسخرية الفنانين.

وكانت تتبع نظاما غذائيا دقيقا (كنوع من الريجيم) تحرص فيه على تناول كوب من الماء الدافىء «على الريق» كل صباح. وتتناول الأطعمة وكانت تتناول خبز الشعير، وتستعمل عسل النحل، لعملية المشروبات، وكانت تعمل على التخلص من فضلات الطعام، المتبقية بالمعدة، بتناول الزيوت المسهلة ثلاثة أيام كل شهر.. وكانت تحرص على مزاولة ألوان الرياضة المختلفة، إلى جانب الأعمال المنزلية اليومية. وعملت على تنظيم النسل، للحفاظ على صحتها من التدهور، نتيجة تلاحق الإنجاب.. واهتمت بالرضاعة الطبيعية للطفل وعمل على سرعة استعادة رشاقتها بعد الوضع.

كانت النظافة عندها مقدسة.. فالمرأة المصرية هى أول من وضع سلوكيات التحضر للبشرية جمعاء.. لقد جاء بالنصوص القديمة حرصها على غسل يديها قبل الأكل وبعده.. وكذلك غسل قدميها فور دخول المنزل

وكانت المرأة المصرية عندما تبدأ تجميل نفسها، تبادر بالاستحمام، وكانت العقائد والطقوس تفرض التطهر بالماء قبل دخول الأماكن المقدسة.

ومما سجلته إبداعات الفنان المصرى القديم، لوحة جدارية تمثل إحدى السيدات تستحم وهى جاثية على ركبتيها، وأمامها خادمتان إحداهما تصب عليها الماء، والأخرى تقرب منها زهرة لتشم عبيرها.

أقول إنه الرفه الحضارى الذى عرفته مصر قبل ألوف السنين يقول الدكتور فياض:

وبعد إنتهاء الحمام كانت المرأة المصرية تمسك مرآتها البرونزية ذات الذراع الأبنوسية والحواف التى تزينها زهرة اللوتس والمرآة هى أهم أدوات التجميل. إن المرآة أصبحت لدى المرأة المصرية رمزا للبعث والحيوية، لأنها تشبه قرص الشمس فى استدارتها ولمعانها وانبعاث الضوء منها.

وكانت المروحة أداة أساسية لدى كل مصرية للحصول على نسمة هواء.

وكانت المصرية تكره الشعر الزائد فى الجسم وتعتبره نقصا فى النظافة وتزيله بالملقاط أو الشفرات وقد عثر فى مقبرة أم خوفو على شفرات من ذهب ونحاس.

وكانت المرأة المصرية مغرمة بالروائح النفاذة القوية وكانت الروائح تصنع من الزهور والفواكه والبذور.

وكان التزين وتضميخ الجسم بالدهون والعطور جزءا من حياة المرأة والإنسان المصرى بشكل عام.. لا يمكن الإستغناء عنه مثله مثل الأكل والشرب.. وفيه يتساوى الغنى مع الفقير. ولذلك أحتوى أجر العامل على كمية من الزيوت والضموخ بجانب الطعام.

وقد أقرت المرأة المصرية ببساطة الفساتين أو الأثواب على أساس أنها تؤدى وظيفة معينة ولكنها كانت تضيف إليها لمسات جمالية فتحرص على إقتناء وإرتداء مجموعة كبيرة من الحلى والجواهر.

كان صناع الجواهر (الجواهرجية) المصريون على درجة مذهلة من المهارة والإتقان.. فلم يتفوق أحد حتى الآن على صنعتهم التى يمكن مقارنتها بأكبر بيوت المجهورات العالمية العصرية.

وكان لرأس المرأة المصرية زينة خاصة، تأخذ أشكال الأكاليل أو الشرائط المصنوعة من الزهور الحية، أو من المعدن والأحجار شبه الكريمة.

ونصل إلى طلاء العيون، فنجد أنه كان عنصرا هاما فى عملية التجميل لدى المرأة المصرية. وكان هناك لونان شائعان فى الإستعمال، هما الأسود والأخضر اللذان يرجع تاريخ إستخدامهما إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

واللذان عثر عليهما فى المقابر فى صورة مواد خام أو رقائق أو بودرة أو معجون.

وكانت موضة العين الشائعة فى مصر لدى النساء هى عين الظبى، أو العين على شكل اللوزه.

واهتمت المرأة المصرية بتقليم أظافرها وتهذيبها، واستعملت لها بعض الطلاءات وبخاصة الحناء، كما استخدمت الحجر الأسفنجى لتنعيم الكعبين.

وكان من عادة المرأة المصرية تصنيع حبوب اللبان وغيره، وتضيف إليها عسل النحل، ثم تقوم بمضغها، فتجعل الأنفاس طيبة الرائحة.

أردد مرة أخرى أن المصريين عملوا للخلود. من هناء العيش عشقوا الحياة فاشتهوا ديمومتها واستمراريتها.

يقول الدكتور فياض:

كان المصريون القدماء شعبا يعرف كيف يرفه عن نفسه، ويتسلى بوقته، ويتريض ويسترخى. وهو أمر تصوره لنا المناظر فى كل مكان وبكل وضوح، وبالتفصيل.. ويعتقد أن الحجم الكبير من المتعة التى وجد المصرى نفسه فيها فى الحياة، هو الذى دفعه إلى البحث عن استمرارية الحياة بعد الموت.

وقد كانت الرياضة والألعاب الرياضية تحظى بشعبية كبيرة بين المصريين، سواء كانت ممارستها بصورة رسمية فى حضور الفرعون، أو بطريقة غير رسمية، أو كجزء من الاحتفالات الدينية وليست هناك لعبة رياضية لم يلعبها المصريون ومنها: المصارعة والملاكمة، والسباحة، والعدو، والأكروبات.. الخ وهى تظهر غالبا فى صورة نشاطات جماعية.

وبسبب صفاء السماء وروعة المناخ، كانت رياضية الصيد والقنص وخصوصا في الصحراء، محببه لدى المصريين.

وكان الأثرياء يمارسون رياضة ركوب الخيل وسباق العربات وقد أشتهر أمينوفيس الثانى وتحتمس الثالث بأنهما كانا من محبى الرياضة الخارجية والرماية بالسهام.

وكان للأطفال لعباتهم ولعبهم. تشهد بذلك الدمى والعرائس الدقيقة الرقيقة المجهزة بمجموعات من الملابس والكرة وأشكال الحيوانات ذات الأطراف المتحركة وهناك مناظر لأولاد وبنات يؤدون نشاطات جماعية مختلفة، مثل الألعاب والمسابقات الرياضية والتحطيب والرقص التوقيعى ومن النشاطات الأخرى التى كان المصريون يشجعون أولادهم عليها- على الأقل فى الأسرة المالكة والنبلاء:

السباحة ورمى السهام وركوب الخيل

وكان المصريون يحبون الصيد. وتظهر أولى مناظر الصيد عام ٣٣٠٠ ق. م.

وكان الصيد في الأحراش يتضمن صيد الطيور أو السمك أو وحيد القرن. وقد سجلت كل متع الصيد فى بردية عنوانها: (متع صيد السمك والطيور البرية).

وقد سجلوا، كعادتهم، عمليات الصيد وفنونه مع صور كثيرة ومن الطريف أن صيد السمك كان يتم بالرمح.. أما الخطاطيف والشباك، فلم يكن يستخدمها سوى الصيادين المحترفين.

وفى مقبرة «نخت» نجد رسما يبين طريقة صيد الطيور حيث يبدو نخت وأفراد عائلته وخدمه فوق مركب خفيف من البردى يستخدم للسير فى المياه الضحلة. وهو مصنوع ببساطة من جريد البردى المجدولة، وله منصة خشبية فى الوسط يتحقق بها التوازن.

حياة مليئة بالمتعة والتنوع والرفه والترفيه والترويح وكل هذا مصحوب بالفن تسجيلا ورسما وتصويرا..

إنها حياة تستحق أن تعاش وأن تسجل وأن ننتمى إليها وإليهم.

الموسيقى

ولكى نعرف نوع الموسيقى المصرية القديمة، يكفى كما يقول الدكتور فياض أن ننظر إلى الآلات الموسيقية التى بقى منها الكثير لدينا سليما، والتى يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات: الوترية والنفخ والدق. تشمل الوتريات الهارب والقيثارة والبربط (آلة شبيهة بالقيثارة) والعود واختلف حجم الهارب وتتراوح عدد أوتاره بين أربعة وعشرة..

ومن آلات النفخ الفلوت، والكلارنيت، والمزمار، ولم تكن الطبول مستخدمة فى الأوركسترا.. إذ كانت مخصصة فقط للأغراض العسكرية والدينية.

ومن الآلات: الدف والطبله والتامبورين. أما التصفيق والقلقالة، والصنج والأجراس، والسيتار فكانت فقط للإستعمال الدينى.

وتضم مجموعة المتحف البريطانى مناظر للمجموعات الموسيقية.

وكانت الموسيقى أكبر ضيافة.

الرجل المصرى حين يولم لضيوفه يستقبلهم ويقدم لهم الخدم، الزهر ثم يعطونهم أقماع البخور ليضعوها فى شعورهم ولكن أهم من هذا كله أن الموسيقيين كانوا يعزفون الموسيقى.

كانت الموسيقى فنا مرموقا فى مصر القديمة

يقول الدكتور فياض (إن المصريين القدماء هم أول من عرف السلم الموسيقى) ص ٩٣.

وهم أيضا أول من عرف حياة الأسرة فى سمتها الرفيع ومعناها العميق الزاخر بالودادة والرقة والحنان ففى التماثيل والنقوش نرى الزوجة جالسة أو واقفة إلى جانب زوجها، براحة

ويسر، تحيطه أحيانا بذراعها أو تترك أصابعها مرتاحة فوق ذراعه أو يده.. أو نرى الزوجة وهى ترفه عن زوجها أو وهما يتعبدان معا.

يقول الدكتور فياض:

ويمكن القول، بكل إطمئنان، أنه من النادر أن نرى فى أية حضارة قديمة الأزواج فى مواقف كهذه ناطقة بالود والألفة.

ومن أمتع فصول الكتاب فصل (الأمومه: الحمل- الولاده- الرضاعة)

هل لأن الدكتور فياض طبيب جراح نسائى؟ أم لأنه يتعامل مع الأمومة والحياة الجديدة التى يستقبلها كل يوم؟

إنه يقف بنا عند نص كريم آسر هو: نصيحة الحكيم آنى لابنه ومؤداها:

ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك

واحتملها كما احتملتك

فقد كنت عبئا عليها، ولم أكن لأستطيع مساعدتها

قد ولدت لها بعد تسعة أشهر..

وضمتك إلى صدرها وأرضعتك طيلة ثلاث سنوات كاملة

وعلى الرغم من فضلاتك فإنهالم تشمئز منك ولم تقل ماذا أفعل لقد أدختلك المدرسة كى تتعلم القراءة والكتابة.

وكانت تذهب إليك كل يوم، حاملة إليك الطعام والشراب من منزلها

والآن وقد أصبحت شابا، واتخذت لك زوجة وأسست لنفسك منزلا تذكر المتاعب التى عانتها أثناء تنشئتك

واحرص ألا تغضب عليك وترفع أكفها إلى الله فيسمع شكواها.

ومن الطريف ما سجله الدكتور فياض من أن (بين الطقوس المتعلقة بالولادة، أن السيدة التى توشك على الوضع كانت تصفف شعرها بتسريحة خاصة، ثم تعتزل قبل الولاده مباشرة فى مكان

يسمى تكعيبة النفاس، أو بيت الولادة (ماميزى) الذى يوجد فى أحد المعابد العامة، أو هو مكان يتم بناؤه بسرعة، إما فى الحديقة أو فوق سطح البيت) ص ١١٤.

ويقول الدكتور فياض أن «كرسى الولادة» المعروف فى ريفنا، (هو أحد أفضل أوضاع الولاده، وذلك لأنه يتفق مع تكوين جسد المرأة لدرجة تجعلها لا تكاد تشعر بأية آلام تذكر، وهى تلد فى هذا الوضع، بل إنها فى هذه الحالة تستخدم جسمها فى تكوينه الصحيح، الذى خلقه الله عليه).

ويقول الدكتور فياض عن وصفه: تشخيص الحمل عند قدماء المصريين.

(يبلل كيسان، يحتوى أحدهما على شعير والآخر على قمح مع بول سيدة، فإذا نموا، فيعنى هذا أنها حامل، وإذا نبت القمح قبل الشعير، كان هذا دليلا على أن الوليد ذكر، وإذا نبت الشعير أولاً، كان المولود أنثى).

وإذا تزوجت المصرية من زوج لا تريده، ترد إليه نصف المهر وتحصل على حريتها.

على أن الإنسان المصرى كان يسمى الطلاق (المسلك الأحمق) ويشق على نفسه أن يفشل زواجه إلى درجة إعتباره نارا حارقة وفى بردية (تفسير الاحلام):

إذا رأى رجل سريره يحترق، فهذا نذير سيء فإنه يعنى فراق زوجته وخروجها وإذا طلق المصرى زوجته إحترم حقها فى الحرية وفى اتخاذ زوج آخر بينما (الفقرة ١٤١) من قانون حامورابى أن المطلقة تدان وأن الرجل وحده هو الذى يملك قرار الطلاق وأن الزوجة لا تعطى شيئا مقابل طلاقها!!

وهنا يحق لنا أن نقابل بين هذا وبين صيغة وثيقة طلاق، مصرية ترجع إلى الاسرة ٢٦:

قال (فلان) للمرأة (فلانة) لقد طلقتك وليس لى عليك أى حقوق باعتبارى زوجا لك.. ولن أقف عقبة أمامك فى أى مكان تذهبين إليه لكى تتزوجى فيه.

ولن يكون لى الحق فى أن أقول إنك زوجتى إذا ما وجدتك مع رجل آخر فمنذ الآن ليست لى أى مطالب عندك كزوجة ولن أتخذ أى إجراء ضدك.

وكان عقد الزواج فى مصر القديمة يتطلب ستة عشر شاهدا بينما وثيقة الطلاق يشهد عليها أربعة فقط لأن الزواج كان محببا بينما يحصرون اتمام الطلاق فى أضيق نطاق.

إنه أسلوب مصر الحضارى فى كل تصرف

إن المرأة المصرية، ملكة، لأنها زوجة تحاط بهذه الهالة. إنها ملكة على عرش بيتها.

وهى ملكة على عرش مصر أعرق العروش فليست هناك حضارة فى تاريخ العالم القديم كان بها كما يقول الدكتور فياض هذا العدد الضخم من الملكات الحاكمات، سوى الحضارة المصرية.

إن ملكات مصر فى هذا الكتاب موضوع كبير يفرد، له، الحديث.

وحتى إذا نظرنا إلى عالمنا الحديث، فإننا نجد أن الحضارة المعاصرة قد إحتاجت إلى خمسين قرنا من الزمان، لكى تأتى بالمرأة ملكة أو حاكمة فى بعض البلدان كإنجلترا مثلا.. وهذا وسام شرف للمرأة المصرية القديمة التى أسهمت فى تشييد حضارة تحترم المرأة وتقدر لها دورها الخلاق.

وبعد فهذا الكتاب بدوره، وسام شرف على صدر الدكتور فياض الطبيب والرجل بما يحمل من دلالات عميقة على تفكيره الحضارى وأسلوبه الحضارى وإنتمائه الحضارى فإن الذى يحترم المرأة بهذا القدر، إنسان رفيع.

كتاب (سندباد مصرى)

قرأت (كتاب سندباد مصرى) فى ثلاثة شهور وكان باستطاعتى قراءته فى شهر واحد بل فى أسبوع واحد ولكنى كنت استمرىء القراءة.. كنت اقرأه وأترشفه وأغنيه.. نعم إن كتاب سندباد مصرى أغنية عذبة.. إنه قصيد مصرى حلو النشيد.. لم يكن كتابا وإنما هو فسحة فى العمر.. ومن الأسفار ماتزيد على قراءته، الأعمال طولا وعرضا وعمقا وغنى.. هذا الكتاب المصرى النبيل كان لمصر محرابا وكان صلاة.. أم فيها صاحبه، قراءه، فى خشوع عابد متصوف.. إنه «شعب نامه» كما يحلو لصاحبه أن يسميه أو ملحمة الشعب المصرى..

تحدث الدكتور حسين فوزى فى مطلعه عن الغزو العثمانى فلم تنل منه الناحية السياسية له والعسكرية وإنما الذى كرثه وشجاه.. وشجانى أن ينقض سليم على بيوت مصر والقاهرة ينزع منها أثمن ما فيها من منقول وثابت.. حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزيكة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر.

هذه هى الحرب المجزرية، وذلكم كان الغزو الأكبر الغاشم، أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة.

ولكن سليم ببطشه وتسلطه كان يخشى مصر وهو الغالب، وليس أدل على خوفه منها خوفا كان يخفيه، فيستعلن فى صورة تفشيه، من هذا فقد نودى فى القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل، ولا مغانى عرب ولا غير ذلك.

إنها مصر التى يعرف غزاتها قدرتها المعهودة على التندر والسخرية منهم كشأنها فى الاستعلاء على النكبات والأحداث.

وفى الكتاب يزحم عينك، الوافدون، دخيلا بعد دخيل.. إضطهاد.. إضطهاد حتى لا نكاد نفيق.. قصص كثيرة.. مثيرة أو (قصة واحدة طويلة تدور حوادثها حول أشخاص عديدين، من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة ولكن بطلها واحد، هو الشعب المصرى). لأنه لفظهم جميعا خرجوا من أرضه وخرجوا من التاريخ وبقى هو أعرق الشعوب لأنه صاحب أعرض حضارة.

ولكن اطمئن فإن هذا المزيج الكريه لم يتناول (سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية، وبقى المصريون، كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن، خلصا، يحتفظون بصفاتهم الأصيلة.. ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون، مثل أجدادهم..)

بل إن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة، تركت أثرها فى حياة الواغلين أنفسهم.. (تركت أثرها فى حياة الأغريق الاوائل، وغير الأغريق، من شعوب العالم القديم، هذا إلى أن عبادة إيزيس، بالذات إنتشرت فى العالم الهلينستى والرومانى) وحين اعتبر الرومان عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة فى المجتمع الرومانى، لم تدم مقاومتهم طويلا، فقد أنشىء أول معبد فى روما لسيرابيس وإيزيس فى عهد.. دومطيانوس قيصر (٨١-٩٦) (إنها مصر).

هذا ولم تدع مصر غيرها إلى دينها بل إن هذا الغير هو الذى إرتضاه واعتنقه مقتديا بها وما كان هذا ليعنيها لا.. بل إن البطالسة حين حاولوا أن يوائموا بين عقائدهم السطحية وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار، أخفقوا إمام احتفاظ المصريين بديانتهم، وكرههم أن يتدخل الغرباء فى طقوسهم وأن ينفذوا إلى دخائل إيمانهم!..

إنها مصر..

إنها مصر التى تقاطع غزاتها مقاطعة روحية من شدة إحساسها بذاتها.. إنها مصر التى تسيطر شخصيتها على الفاتحين. لقد استطاع الفتح الإسلامى أن يحمل إليها الإسلام واللغة العربية ولكنها فرضت شخصيتها عليه بطريقة أو بأخرى يوم جعلت مصر من نفسها واسطة عقد العروبة وحولت الأزهر إلى مركز عالمى للدراسات الإسلامية وانتهى بها الأمر إلى إستقدام الخليفة العباسى ليقيم بها وليكون فيها فى عهد الظاهر بيبرس ثم تولت الدفاع عن الإسلام ضد التتار فإن الخليفة العباسى فى بغداد الذى عيرها بتولية شجرة الدر قد خذله رجاله فلم ينفر أحد للذود عن الخلافة والخليفة غير مصر واضطلعت بالدفاع، مصر ورجالها وذهبت بفخاره حين صدت المغول والصليبيين ومضت فى طريقها إلى يومنا هذا تصنع التاريخ وتكيف الأحداث غالبه أو مغلوبه. لقد تصرفت بنية كريمة الأصول ولو غيرها فى مكانها لأنتهز الفرصة للاستقلال عن الخلافة ولكنها في المحنة تصرفت فى ارتفاع العظيم.

إن الغزو والغزاة يحسب لمصر لا عليها فما يثبت على الرزايا والمحن ويخرج منها سليما فى طبيعته وصفاته لا بل يفنى الغزاة أو يلفظهم أو يقاطعهم ويمضى فى صناعته الأصيلة صناعة

الحضارة، غير شعب قادر جبار عتيد قوى الذاتية، آسر الشخصية.. راسخ القيم، عريق التقاليد، بالغ الإعتداد بنفسه.. بنهره.. بشمسه.. بأرضه.. بكل مقومات حياته.. بكل أعراق ماضيه..

شعب زارع بناء صناع اليدين، ذكى القلب سوىّ الخلق.. حساس الضمير.. شعب عاطفى سمح خلاق ذواق للفن، حلو الشمائل عذب الروح، نبيل الإنسانية، شعب هوايته المحببة الحضارة وصناعته.. الحضارة.. سواء حكمه محب للعلم، ذواقه للفن، أو بدائى مغامر قوته عضلات وليس الرهافة والنفاسة والذكاء وروائع الفنون والأداب، مغامر.. شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضا.

وفى الكتاب قيم تاريخية فهو يبلور حقائق قد تكون كامنة فى النفوس ولكنها لا تعرف طريقها إلى الظهور فقد يكون أصحابها يحسونها إحساسا غامضا أو إحساسا يعوزه التعبير عن نفسه.

فإن الكتاب أو مؤلفه فى تنقيبه عن الشخصية المصرية إكتشف أسلوب مصر فى مقاومة البغاة.. أسلوب المقاومة السلبية أو العصيان المدنى.. فواجب المراقب أو المؤرخ ألا يعتمد على الثورات والإضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية وأنها لكثيرة على طول التاريخ المصرى بيد أنها لا تقف وحدها فى الميزان (لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية.. وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم (العصيان المدنى) فكثيرا ما كانت كذلك فى الحقيقة.

وحقيقة أخرى تطيب، يؤكدها العلماء وهى (أن المصرى الذى انعزل فى واديه الخصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار، إحتفظ بطابعه الإنتوغرافى، غير مشوب فى أغلبه إلى يومنا هذا. فإن بضع مئات الآلآف من أهل الشعوب التى إعتدت على مصر أو إستقرت فيها وعاشرت أهلها واختلطت بهم، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء فى بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة.

وحقيقة: (التوغل فى العراقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى. ومن المشكوك فيه جدا أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية).

وحقيقة: تذكر هذه ورددها: (الخرافة التى أطلقها هيرودوت، وتصور المصريين عبيدا للفرعون، قضى عليها المؤرخون المحدثون.. فأهرام الملوك، ومصاطب العظماء، كما نعرفها، وما تدل عليه من براعة فى الصميم، ودقة فى التنفيذ، وما تحتويه من فن رفيع، لا يمكن تصور تحقيقها فى شعب من الأذلاء. لأن جو الإستعباد الخانق يقضى على الملكات، ويمنع قيام العبقريات. وامحوتب العظيم، الذى ألهه المصريون فى الدولة الحديثة -وهو من رجال الدولة القديمة- لم يكن ملكا ولا أميرا، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى، أرتفع بنبوغه وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ. وغير امحوتب العظيم أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة، ونحتوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع- حوتب والأميرة نفرت، ورسموا أوزميدوم، لا أتصور تيقظهم الفنى، وحريتهم فى التعبير، فى جو عبودية وكبت تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة «تى» وبتاح- حوتب وميراروكا وتجول فى حرم الهرم المدرج، وقف بأعمدة البهو القديم، تحس بحب الحياة، حياة شعب مطمئن هانىء، لا شعب يعيش فى قهر، إن المقهور لايبدع الحضارة.

وحقيقة: مصر لا تفقد إستقلالها وإن قامت على حكمها أسر أجنبية، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين. إنما مصر تفقد إستقلالها عندما تنزل إلى مرتبة الولاية والإيالة والأقاليم..

وقد اثبتت الكشوف الأثرية أرقاما فلكية لعمر مصر لقد اثبت الدكتور جمال حمدان أدوات زراعية عمرها يقدر بمائة وثمانين ألف سنة والزراعة تتولد عنها الحضارة.

أمة ألفيه

وحقيقة:

(الميلاد اليومى للشمس، والميلاد السنوى للنهر يشكلان قسمات الطبيعة المصرية ولكن ذلك لم يكن ليعفى أهلها من الكفاح الدائم، أو ليحميها من الأخطار، مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثرا وأصدق، إذ لم يجىء نعمة سابغة، وإنما حققه التعب والنصب).

ويهيب الكتاب بالمصرى أن يعرف (أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب (وادينا) لها أهميتها فى تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه اسلاف اسلافنا منذ فجر الإنسان.

وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة (علينا) ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها، وبغير قليل من آثارها. حضارة البدارى وديمه وكوم أوشيم والفيوم ونقاده والعمرة وجرزه ووادى حوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة. هذا بالطبع غير حضارة الأقصر والمنيا والصعيد كله.

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد.

أخى فى المصرية تذكر ولا تنسى

(وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى، من أول العصر الحجرى الوسيط، يتجه اتجاها حضاريا مميزا تختص به مصر).

أخى فى المصرية تذكر ولا تنسى:

أن العصر الحجرى الحديث فى مصر كان (سابقا بزمان سحيق على حضارة العصر الحجرى الحديث فى اوربا، ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالبا فى وادى النيل الأدنى قبل أى مكان آخر.

ماذا أنقل عن الكتاب وماذا أدع. أقرءوا معى فصل (مرمدة بنى سلامة). ان الكتب بعامة كتابان كتاب له طابع علمى وكتاب له طابع أدبى أو فنى ولكن كتاب (سندباد مصرى) كتاب علمى أدبى فنى تاريخى، شعرى معا.. الألفاظ فيه حقائق وقصائد معا.. لفظ له أعماق.. ولفظ له أبعاد ولفظ وراءه ظلمات ولفظ له أضواء ولفظ له إيحاءات وظلال حتى النقط.. والمسافات فى السطور كنت أقرأ وراءها معانى كثيرة وأرى أشياء.. هل تذكر أشارتى فى هذا المقال إلى فصل (القيراط الخامس والعشرون) فى هذا الفصل تتكلم النقط والمسافات بما يبز الخطب البليغة والمقالات المدبجة.. وكيف؟ أقرأ معى والكلام هنا عن الحسبة البسيطة التى نقلتها لك عنه.

(إحفظ هذه الحسبة البسيطة، فإنها لم تجىء من برما وإنما نقلتها عن إبن إناس ويمكن الإطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى، من عهد مينا حتى...)

هل عدت من الفسحة النفسية والفسحة الزمنية التى تبعد بك فيها وتمعن فى البعد، (حتى) هذه والنقط الثلاث؟

أما أنا فقد غرقت فى بحار (حتى) هذه ومايزال هذا حالى معها كلماتذكرتها.

ويعود المؤلف إلى تفسير (حتى) فيزيدها غموضا وذكاء ولكنه الغموض الساحر الشفاف.. والذكاء الذى يروع بتعاليه وتةاهله معا.. يفسر المؤلف (حتى) التى تأسرنى فيقول.

فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن الماضى..

وفى الكتاب شعر رائع.

(ومع أننى سافرت إلى أوربا كلفا بحضارتها- ومازلت، مما حكيت بعضه فى كتاب «سندباد إلى الغرب»- فإن انصرافى التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك الحضارة وأصولها، لم يحمنى من نوستالجيا أرض كيمى، وكان الحنين إلى الوطن يعاودنى فى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيدا عن بلادى.. ويرى بعض المواطنين علاجا له فى أن يجتمعوا للإستماع إلى إسطوانات المطربات والمطربين المصريين، أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم.

وعرفت إلى جانب مثل هذه العقاقير، علاجا كنت أمارسه دون قصد أو وعى، إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى. كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة. وأذكر جيدا زيارتى للكاتب المتربع الذى يعتز متحف اللوفر به، لأنه حقا من أجمل أعمال الدولة القديمة. وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذه لا تتجه إلى محدثه خيل إلىَّ فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى «لفظ» ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى، وأننى أسمع هذا اللفظ الموسيقى ينزل على قلب النازح من وطنه بردا وسلاما).

رعدة خشية وهيبة وخشوع تجللنى وأنا أقرأ هذه العبارات وأنقلها اليك:

وفى الكتاب عبارات شجتنى وسرت وعمقت مسراها فى وعيى وشعورى.. أصغ معى:

(سوف يهرب الفلاحون من قراهم - للمرة كم- لا أدرى- أمام جباة الضرائب ومقارعهم وفلقاتهم وسياطهم- فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة أن لم يكن أهلها هم أيضا هاجروا)

لم يكن الرجل مؤرخا جامدا يرصد الحقائق الجامدة بل كان مصريا يكتب فى حنان وولاء ووفاء وحب عميق..

- (جبلة الحياة فى هذا الشعب هى الحضارة نفسها.. فهو، فى شعوب الأرض طرأ، مثال رجل الأستقرار والسلام.. ومع ذلك لم يمنح السلام والإستقرار فى تاريخه إلا قليلا..

أرأيت!!؟

وفى الكتاب قصص..

إقرأ قصة زيارته للمتحف البريطانى..

ان ما نقلته من شواهد ليس بخير ما فى الكتاب وإن كان أصلحها للنقل والإستشهاد ولكن هناك مثلا لفظة رقيقة الإحساس فى موضعها من الصفحة أو السطر ولفظة تحف بها قصة طويلة قبلها هالة ساحرة.. هناك نقط، هناك علامات استفهام فصيحة وهناك علامات تعجب ساحرة وهناك أشياء كثيرة.. النقل يشوهها من ينزع لبنة تروقه من بناء فنى متكامل؟ إن جمالها فى موضعها من البناء كله..

ومن أجمل فصول الكتاب وأشجاها فصل (القيراط الخامس والعشرون) هذا الفصل الذى عثر فيه الدكتور فوزى على حسبه (بسيطه) من صدر الدولة المملوكية فى عهد السلطان المغمور حسام الدين فى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧) وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء والإطلاقات، وعشرة للجند!

ثم يتهدج صوت المؤلف حين تبلغ مرارته حافة الكأس فيقول فى سخرية مصرية ممرورة (قد تتغير أرقام المعادلة، يعدلها الولاة والملوك والسلاطين.. وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى والباب العالى، حتى الاستراتيجوس الرومانى والخواجات، وصرة الأراضى المقدسة وغلالها.. وديون الخديوى إسماعيل، ولكنها تظل معادلة صحيحة، طرفها الثانى لا يتغير، فهو هو أربعة وعشرون قيراطا.. وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على ممر الدهور والبساطة والدقة. معادلة الإقتصاد المصرى، المالية المصرية، تدخل فى حكم قوانين الطبيعة: كالنظرية الذرية، وقانون تمدد الغازات، والجاذبية، الأرضية، هى شىء يعادل، فى دقته وثباته حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد).

هل عرفت نصيب الشعب المصرى من خيرات أرضه ونيله وشمسه، السؤال من عند المؤلف الحزين ومنه ايضا الجواب:

أنه القيراط الخامس والعشرون، ومكانه.. مملكة السماء!

وفى هذا الفصل صور تستوقف ولكن أعذبها وأحبها صورة الشعب المصرى فى أحيائه التقليدية: تحت الربع أو الحسينية أو الحنفى.. هناك حيث بياع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس

صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى فى سيدى البيومى، أو فى جامع الأشرف برسباى، ويعود الرجل بعد هنيهة متهلل الوجه نظيفه وزبيبة الصلاة، قد زادت سمارا.

أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور، وفى المدن، بائع الحلوى والخراط والسروجى والبزاز والعطار وصانع الخيام. هناك حيث يتحدثون فى رقة تلف المعانى فى ألفاظ شفافة فتفهم بالبداهة أو (بالحداقة) كما يحلو لقومنا أن يقولوا فإن متحدثنا وسامعنا على السواء (يفهمها وهى طايرة).. وهناك حيث تتسمح اللغة وتصفو كالنفوس فترفض فى أدب وتعابث فى خفة، وتستخف فى طيبة مجرد (تريقة).. من أمثال: (يفتح الله) ومعناها: السعر الذى تعرضه غير مقبول. و «صلى عالنبى» أى فلنبدأ فى الفصال و «على «الطلاق» أى لا تصدق كلمة مما سأقول و «يافتاح ياعليم» أى أول القصيدة كفر. وبعدها وياك، وربنا يكفينا شرك. و «باسم الله» أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى، ثم يتشجع عندما ترفض دعوته، فيقول «حلفت عليك» ومعناها: أيها الأريب قد فهمتنى و «توكل على الله» ويعنى أغرب عن وجهى «من غير مطرود و «دستور إيه ياعم الله يخليك»، يعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله.

هذه لغة شعب فيلسوف مسالم يتكلم «بالكناية»

ألا ترى معى أنها لوحة بالألوان والأضواء والظلال.. لوحة (طعمة) كالشعب الذى تصوره..

وفى الكتاب طرائف لو جاز للمضحكات المبكيات أن تطرف أو تروق.. يصف المؤلف الأتراك رجال الدولة (العلية) فتجىء الصورة كما تعرفهم جفاة غلاظ أرذال يتهالكون على المال ويجرون وراء الرشوة ثم يقبلونها مع الغطرسة.

أنا قرأت الكتاب فأضفت إلى عمرى أعواما لا بل حقبا طويلة وتعرفت إلى أحياء وإكتسبت أصدقاء تقدم بهم الزمن ولكنى عشت معهم على الصفحات وانفعلت بهم حتى كدت أصافحهم محيية شاكرة مقدرة مكبرة. ففى كتاب سندباد مصرى حييت فى إجلال شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائى الحنفى الذى دعاه السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى عندما حاول فى تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف. فلما حضر شيخ الإسلام.. وكان قد تأخر عن الحضور.. ولما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار. . وقال فى الملأ العام من ذاك

المجلس: لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي- فإن كان ضروريا فى الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة وهذا هو دين الله تعالى أن سمعت آجرك على ذلك.. وإن لم تسمع فافعل ما شئت وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا.. ثم قام..

وفى كتاب (سندباد مصرى) لقيت الشيخ رفاعه الطهطاوى المصرى الذى ذهب إلى فرنسا على هامش بعثة لا ليتعلم ولكن ليؤم المصلين فإذا به يعود منها ليؤم المتعلمين ويرأس المترجمين ويبدأ به تطور الفكر المصرى حتى ليلقبه الدكتور حسين فوزى بلقب (باعث النهضة المصرية).

وفى الكتاب ملكات إحداهن مقدونية خليلة تدعى «كليوبطرا» والأخرى مملوكة دخيلة تدعى «شجرة الدر» ولكن أعظمهن قدرا وأشرفهن نسبا وأكرمهن أصلا وأقواهن شخصية إنما هى «حتشبسوت» المصرية الصعيدية سليلة الأسرة المجيدة التى أخرجت أحمس وتحوتمس وأمينوفيس وأخناتون.. حتشبسوت التى ارتفعت على صيد القلوب وحبك المؤمرات الصغيرة لتمارس المهنة المصرية القديمة: صناعة الحضارة. فخلفت لنا آثارا عظيمة من أمثال مسلتى الكرنك: القائمة، وهى أعلى المسلات بالكرنك، والنائمة ثم المعبد الصغير الأنيق هناك، المعروف بقاعات الملكة، وهيكل سفينة آمون، والصرح الثامن بالكرنك وأعظم من هذا كله على جلاله، معبدها الكبير بالدير البحرى (رائعة الروائع).

إنها حتشبسوت بنت مصر وملكة مصر..

صداقات مصرية جدد عهدى بها هذا الكتاب وأيضا صداقات أجنبية وصلنى بها هذا الكتاب..

لقد غدوت صديقة للرحالة «فولنيه» الذى أنصف الشعب المصرى من. (على بك الكبير) البروفة الأولى لمحمد على باشا كما يدعوه الدكتور فوزى.

غدوت صديقة للأديب شارل ديدييه صاحب كتاب (ليالى القاهرة) الذى دافع عن كره مصر للجندية لأن الجهادية كانت (عملية سطو ضارية) ويمضى ديدييه فى وصف الوقائع المثيرة فلا تملك إلا أن تردد كالدكتور فوزى مع جداتنا..

أماه، ويأمهات الناس، من يعيد إلىَ ولدى؟

ولدى..

غدوت صديقة للعلامة أميلينو الذى وصف الجنس المصرى بأنه من أعظم الأجناس بشرا وحبا للحياة، وأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم- أى حتى أوائل القرن الحالى- أطفال كبار، يحبون البحبحة، ويقبلون على المسرات، أهل اجتماع وألفة، ينزعون إلى كل مباهج الحياة الدنيا ومتاعها..

والمصرى- على حد قول اميلينو- لا يكتفى بحقائق الحياة وحدها، مهما كانت مفرحة بهجة، فهو ما فتىء هائما فى خياله بحثا عن الخوارق، وجريا وراء المغالاة. وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم.. القديمة وبين دينهم الجديد.. ولم ينبذوا أساطيرهم العتيقة بل كسوها لباسا مسيحيا، فتحولت ألهتهم القديمة وجنتهم إلى ملائكة وقديسين والى آبالسة وشياطين.

غدوت صديقة للانسان المرهف الحس شاتوبريان الذى طالع أهرامنا فأدرك بنفاذه أن المصرى (لم يشيد الأهرام لشعوره بالفناء، بل لإيمانه بالبقاء. هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم، أو بعض يوم، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية (انها أبواب الخلود أقيمت على حدود الأزل). غدوت صديقة لصاحب كتاب (فجر الضمير) جيمس هنرى برستيد الذى مد بصره وهو فوق الجبل (جبل الزيتون) بفلسطين فسبقه خياله إلى مصر ويسجل هذا فى كتابه بقوله (وإذا كنا نجلس مطلين على قرية النبى ارميا، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى واخترقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء، إلى أرض وادى النيل، منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى- فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكا لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس، وذلك قبل أن يولد النبى إدما بالفى عام).

هذه مصرنا.. لم يكن السندباد المصرى مؤرخا فحسب بل كان فنانا وإنسانا كان فنانا حين يقف بك لينقل لك من تراجم الجبرتى ترجمة واحدة، حيثما اتفق لواحد من المصريين ويقابلها بترجمة واحدة، حيثما اتفق، لواحد من أمراء المماليك، وستحس فخره واعتزازه وهو ينقل الترجمتين فى مقابلة المزهو السعيد المشيد فإن (جميع تراجم الجبرتى بإستثناء طفيف تتخذ صورة شبه واحدة للمصريين، هى الصورة التى قدمها للشيخ الحفناوى، وصورة واحدة للمماليك هو ما تراه فى ترجمة ايواظ بك..)

إقرأ انت معنا الترجمتين.. بل إنى أتنحى لأخلى بينك وبين أستاذنا الدكتور فوزى.. أنه يقول:

(إفتح التراجم عند أية صفحة: العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين، والحرب والضرب والغدر والقتل والنهب والعودة بالرءوس المقطوعة والجلود المحشوة بو، تجدها دائما فى تراجم المماليك.. العثمانيين..)

تلك هى الصورة الحقة لتاريخ مصرفى عهد المماليك والعثمانيين.. المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة والأجانب قطاع طرق صلابون نهابون. المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع، بالفن والصناعة والفكر والعلم.. وغزاتهم الأجانب عنايتهم جمع الأموال وضرب السكة فيما فيه فائدة الولادة والأمراء، والفتن حول السلطة والنفوذ والإستيلاء، على الأرض.

والمؤلف لا يطلق هذا القول إطلاقا بلا شاهد من الأحداث أو بينة من التاريخ.. إن تقاليد العالم الثبت لا تتخلى عنه فترة. كثيرا ما ينسى حبه وغضبه وسخطه ورضاه ليعلن كلمة الحق وإن رجحت بها كفة الأعداء.

إن بالمؤلف المصرى جراحات من المماليك ولكن روح مصر العادلة السمحة.. روح مصر التى تسرى فيه، حدث به إلى ذكر حسناتهم الماثلة فى الخوانق والمدارس والجوامع والبيمارستانات.. أنهم الآمرون بنسخ الختم المذهبة.. الموقفون الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ومساقى الحيوان.. ومستشفياته، القوامين على صناعات جميلة متقنة سواء فى البرد والطرز أو على النحاس المكفتة بالفضة أو الفضة المكفتة بالذهب والأبنوس المطعم بالعاج، وخشب الورد من ابداع الصانع المصرى المطعم بالأبنوس أو صناعة الخراطين للمشربيات والمنابر، والزجاجين للمشاكى والميناء والفسيفساء.

فنان لا يرى فى النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور مجرد ذهب وزمرد وياقوت ولا زورد- (وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة، تعنى بالجمال فى الأثاث واللباس والصحاف والأوانى، من أية مادة صنعت، حتى تتعجب اليوم بتلك العقود «الفالصو» التى يقتنيها السياح، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز وزجاج وقطع الميناء لا لشىء إلا أنها تقلد، وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى العجيب.

ثلاثون قرنا من الفن المصرى تحيا برغم الإضطرابات والثورات والغزو الهكسوسى والرزء الفارسى والحكم المقدونى والرومانى أليست هذه هى الأعجوبة الحقة فى تاريخ الفنو ن الإنسانية كلها؟

وبعد أن قرأت الكتاب وجدتنى مع صاحبه أقف وقفة الحائر فقد كنت أسير وراءه مسحرة لا أدرى حتى انتهيت معه إلى الذرى ووجدتنى مثله أملأ رئتى من هواء الأعالى وأرجع البصر حائرة.. مترددة.. وأنا من علِ أشرف على حضارة أربعة آلاف سنة، هى التى جعلت اسم بلادى على كل لسان، منذ قدماء المصريين إلى اليوم. الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم المتمدن قديمه وجديده، هى التى نزلت بى إلى الحضيض عندما اشتبه العالم فى أننى غير جديرة بأحد أجدادى الأولين بل تشكك فى شرعية مولدى، عندما عرفنى أقل الناس علما بمجدى الغابر، وأشدهم إنكارا لأرومتى.

أحنى هامتى إجلالا للمؤلف الأصيل الكبير المتواضع وهو يقول وأنا إلى جواره أسمعه (لست مستحقا رفعا ولا خفضاء، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب، وصدق الناس أخيرا أن المرء بأصغريه، قلبه ولسانه لا تحكم لى أو على لأن ماضىّ «البعيد كان مجدا مؤثلا وماضى» القريب كان ذلة وهوانا. أنظرنى حتى تتبين حاضرى، وستعرف أن حرفا واحدا لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى.. والمسيحى والإسلامى. فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه، تالده وطريفه كراكيبه وتحفه الغالية عظيمة وحقيره..)

(إن حرفا واحدا لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى والمسيحى والإسلامى فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه، تالده وطريفه).

قولوها معى.. قولوها معه فلا خير فيمن لا يقولها..

هذا الكتاب الذى هو ملحمة للشعب المصرى ومرثية فى أكثر من موضع لما عاناه على مدى الأزمان تخرج من قراءته بعد كل الإنفعالات التى مررت بها خلال العصور مستريحا فى النهاية راحة الوثوق والإطمئنان والإيمان لأن مصر (خرجت من محنها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء مقبلة دائما على صناعتها الواحدة صناعة الحضارة، برغم كل شىء، وتحت حكم كل إنسان، وضد كل إنسان) لايفهم قيمتها وقيمها.

إن الدكتـور حسين فوزى يرى أن الجـبرتى قد ترك لنا أروع صـورة لمصر وأصدق فيـما بين نهاية القرن الثامن عـشر ومطلع القرن التاسع عشر وأنا أرى إن الدكتـور حسين فوزى أنه ترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق عبر القرون على مدى العصور.

***

أشهد أنى قرأت الكتـاب فأحببت مصر أكثـر.. لا.. ليس فى استطاعة الحب أى حب.. لأى شىء.. أن يفوق حبى لمصر الغاليـة.. إنما أردت أن أقول حنوت عليها بقلبى كله. لا ولا هذا ايضا فحناتى لا يزيد ولا ينقص لأنه فوق طاقة الزيادة أن تضيف إليه وفوق طاقة النقصان أن ينال منه.

ماذا أريد أن أقـول؟ قرأت الكتاب فـأحببت صاحـبه أكثـر واحترمتـه أكثر.. كـان فى وعيى وضميرى عالما وأديبا فارتفع بعد الكتاب إلى مصاف المتصوفين..المتصوفين.. الواصلين فى شرعة الوطنيـة.. كان الكتـاب لمصر محـرابا والسـطور صـلاة.. تطهر النفس وتزكـيهـا.. بورك المحراب وبوركت الصلاة.

مذكراتى فى نصف قرن

صاحب هذه المذكرات أحمد شفيق باشا. أقرأ الكتب بالقلم لأنى أعايشها وأعيشها ساعة القراءة وأسجل رؤيتى لتوها، حرصا على بكارة الإحساس.

وتفرض الدراسة نفسها على قراءاتى فألتزم بقراءة الكتاب من أوله ومع ترتيب الفصول ولكنى فى هذا الكتاب بدأت بقراءة القسم التاريخى السياسى منه ووقفت طويلا عند الثورة العرابية باعتبارها رواية شاهد عيان فالمؤلف من رجال السراى -حتى ولو كان منحازا فمهما نحسب النقد العلمى أن يكون شابه الهوى لقرب كاتبها من الحاكم أى الخديوى فى وقته ولكن هذا السبب نفسه عامل توثيقى بما يتيح من مصادر الأحداث وبواطنها على أن المؤلف ذكر ما للحاكم وما عليه بقدر ما تستطيع بشرية الإنسان.. على أن المؤلف لحقه غبن من السراى، يوما فقد فصل من عمله يقول (لما اشتد العسر المالى وتقرر تنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها، كان أول من نفذ هذا القرار هو ولى العهد توفيق باشا فتنازل عن تفانيشه وتقرر الإستغناء عن كثير من الموظفين بها وكنت ضمن الذين أُستغنى عنهم فى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٩). وان كان عاد إلى السراى فى آخر يونية من العام نفسه.

نسيت عمرى وأنا أقرأ الثورة العرابية فبكيت وأحسست عذابات شعبنا وقتئذ إحساسا عميقا كأنى خضتها.. تجرعت غصصا كثيرة والناس الطيبون من أهلنا أصحاب هذا التراب يسبقهم الأجنبى فى طريقهم من مكان إلى مكان.

من حق القارىء ان أعرض الكتاب من أوله.. وهنا يقف المؤلف وقفه عند عصر اسماعيل الذى شاهد جزءا منه. أخذ كثيرا وأعطى كثيرا.

أصلح كثيرا وخرب كثيرا.. يقول المؤلف (كان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والإسراف هم السلطان عبدالعزيز والإمبراطور نابليون الثالث، وإسماعيل خديوى مصر.

ومن غريب الإتفاق أن هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريبا. فكان بين سيرهم كثير من وجوه الشبه. وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة. ثم حكم ثلاثتهم مددا متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة).

والمثل من مصر:

المناسبة: فتح قناة السويس

يقول المؤلف والواقع يؤيده (بقيت هذه الأحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير بما بعث الإمبراطورة أوجينى أن تبرق إلى زوجها الإمبراطور يوم حفلة الإفتتاح تقول له: «وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الإستقبال فخم، لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك).

وقد أنفق اسماعيل المديون على هذه الإحتفالات مليونا وأربعمائة ألف جنيه مصرى.

وليت الأمر أقتصر على الداخل بل إن إسماعيل أغدق فى الخارج وعلى من لا يعرفهم «زوى بارو باشا الفرنسي وكان رئيس الديوان الأفرنجى فى عهد إسماعيل أن (إسماعيل فى إحدى زياراته لباريس سمع بجمال قصر لأحد أغنياء الباريسيين فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة القصر هياما بالفن الجميل. فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى إلى مأدبة أقامها له. فكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه. وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل إسماعيل صاحب القصر عما إذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه. ولم يكن الرجل يود التفريط فى قصره.. ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بان طلب لقصره ثمنا باهظا قدره بخمسة ملايين فرنك- راجيا أن يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء -ولكن خاب ظنه. فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المخصص لكتابة العقود) ليكتب العقد. فسأل عن اسم البائع وقيده.. ثم سأل عن اسم المشترى وعندئذ أشار اسماعيل بإصبعه إلى ابنة رب الدار قائلا (مدموازيل..» وبذا عاد القصر لابنة صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ!!) ومع هذا حفل عصره بالنوابغ فى العلوم والفنون وبعضهم كانت له شُهرة علمية فى تخصصه مثل محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر الحديثة لأول مرة وقد شهد علماء الفلك الأوربيون بنبوغه فى علمه وذكروه فى كتبهم.

أقول لو أن الأمر شورى واستطاع أعلام عصره أن يوجهوا دفة الحكم لما واجه هذه النهاية الدامية التى طوت صفحته ولكن آفة الحكم الفردى، التسلط.. ولا نجاح هنا بإنشائه مجلس النواب فالمؤلف صاحب المذكرات يروى عن والده أن هذا المجلس عند إجتماعه، دعا السكرتير الأعضاء، أن يقسموا أنفسهم ثلاثة أقسام:

الأول حزب اليمين ويؤيد الحكومة.

الثانى حزب اليسار وهو المعارض له

الثالث حرب الوسط وهو المعتدل

فلم يكن من أعضاء المجلس إلا أن انحازوا جميعا إلى جهة اليمين قائلين وكيف نكون «ضد الحكومة؟!

وأنا لم أضحك من هذه القصة.. فإن ظاهرها يخفى حقيقة مؤلمة على العكس تماما مما يبدو من سطحها.. إن النواب الذين قالوا وكيف نكون ضد الحكومة لعلهم كانوا يسخرون ولا ينافقون.. فما دامت الحكومة لم تجر انتخابا فهى صاحبة السلطة بما هى صاحبة التعيين فكيف يخالفونها؟ ولعلهم أذكياء أيضا إلى الحد الذى توجسوا، معه من التقسيم الذى طرحه سكرتير الحكومة.. وتحسبوا إنه يريد أن يستدرجهم ليعرف المعارضين.

على كل حال، تثبت التجارب فى كل عصر أن الإستبداد يأكل نفسه حتى لو ذوب فى بحر المر قناطير من السكر..

ويأسى القارىء مرة أخرى على حدائق القاهرة. وندع الآن حديقة الأزبكية جانبا فمن حقها أن تستأثر بموضوع كامل واقف الآن عند حى شبرا الذى يكاد يختنق الآن لنقرأ فى الكتاب أن شبرا كانت (بمزارعها النضرة ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتبرد والرياضة عادة. وكان يقصد إليها المرتاضون مشاة وركبانا، وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح. وأحيانا واقفة فى إنتظار أصحابها ممن حضروا إليها للرياضة، مكبلة فى اللجم، صفوفا على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المطهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يدانيها من كبار السراة والأعيان، يتقدم هذه العربات قمشجية (سياس) لإفتتاح الطريق وإتماما لمظاهر الأبهة. وكان يرى بين المتنزهين فخرى باشا ممتطيا جواده الجميل وأمامه (السايس) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة.

ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد (محمد على باشا) هل فى شبرا الان صف واحد من الأشجار؟

صورة أخرى بين الأمس واليوم.

عندما تحدث الكتاب عن أفراح الأنجال قال (كان كل جهاز من الجهازات الأربعة، يطاف به في أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسه الجند الراكب، تتقدمها فرقة موسيقية إرسالها إلى سراى العروس، وكانت الشوارع التى يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة وكذلك. كانت شرفات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين).

بقى أن نعرف مقتنيات الجهاز الذى يمر بين (الجماهير الغفيرة) دون أن يلمسه أحد.

يقول المؤلف (كان جهار كل من عروس البرنسين حسين وحسن. وكذلك جهاز البرنسين فاطمه هانم وأمينة هانم. منسقا فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى لعرضه على الأنظار. وهو يتكون من أنواع الحلى المختلفة الأشكال المرصعة بالجواهر والماس. هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بأظرفها الذهبية المحلاه بالجواهر وأفمام الشبوكات التى من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر.

وكما تعرض هذه الجواهر على البسطاء فى الطريق تعرض على زوار القصر العالى ترى أين ذهب هذا كله؟ لقد رأيت قصر مجهورات محمد على فى الأسكندرية وأستطيع أن أقول إن ما فيه بالنسبة إلى هذا المذكور فى الكتاب عينات منها:

(كان المتبع فى طبقات الأغنياء، عند ختان أبنائهم، أن يأخذوا أبناء أصدقائهم لإجراء عملية الختان لهم فى منازلهم، ويبقون بها حتى يتم شفاؤهم.. وبعضهم كان يدعو إلى منزله فى هذه المناسبة أبناء الفقراء فتعمل لهم العملية، ويقدم لهم الطعام المناسب وبمناسبة أفراح الأنجال التى تحدثت عنها منذ قليل، يقول الكتاب إن (إسماعيل) (دعا تلاميذ جميع المدارس وطلبتها للإشتراك فيها بتناول الطعام، ومشاهدة الألعاب، وسماع الأغانى).

والخديوى توفيق له فى الكتاب صورة جالساً القرفصاء أمام قراونه يذوق الطعام قبل أن يقدم إلى الطلبة حتى يطمئن على جودته!

ومن طرائف أفراح الأنجال أن الممثلين بين الفصول كانوا (يخرجون لتناول المرطبات فى محل مخصوص، معصوبى الأعين، ويقودهم الأغوات إلى المقصف الموجود داخل الحريم ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل.

ومن طرائف أفراح الأنجال، زفة العروس وزفة العروس فى كل وسط حبيبة ولكن عروس الأمير (كان يصطف الأغوات صفين. وبيد كل واحد «فنيار - أى نجفة» ذو شمعات تعطى ضوءاً

كبيرا، وبين هذين الصفين تسير العروس فى أبهى حلل العرس مسدولا على وجهها الدواك الذهبى الرفيع، وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحتمله من الحلى والجواهر الكريمة، ويسندها فى مشيتها إثنان من الأغوات، ثم تبدر عندئذ البدره الفضية، التى تحملها إحدى (الكلفوات- أى الدادوات «الدادات») فى كيس كبير.

وعندما تصل العروس إلى غرفة العرش «الكوشة» تجلس على مقعد عال بين أمها وبين الوالده (باشا)

ويكثر التزاحم على الدخول لمشاهدة العروس فى حليها الجميلة بسهولة وهناك تنثر البدرة الذهبية وبدلة العروس مرصعة من الرأس إلى القدم بالماس

مرة أخرى أقول: أين هذا كله؟ أى ريح ذهبت بهذا كله؟ حين زرت متحف اللوفر بباريس رأيت جناحا ضخما يضم نفائس ملوك فرنسا وأباطرتها.. وعندما زرت قصر الملك بمدريد وهى التى قامت بها ثورة أهلية- رأيت كل شىء فى مكانه.. وأغرب من هذا أنى عندما زرت قصر توب كابى باستامبول رأيت كنوز السلاطين كما هى بل رأيت طبقا ضخما من الكريستال قطره نحو ٧٠ سم وعمقه أو ارتفاعه نحو ٤٠ سم مملوءا بأحجار الزبرجد المفرده وكان من السهل الإختطاف والاغتراف أى رزء حل بمصر!!

إنى لا أحب المتنبى مع فحولته شاعرا، لأنه أساء إليها حين أحنقه كافور، ولكنى مع هذا لا أجد أصدق من بيته فى وصف هذه الحال.

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وماتفنى العناقيد

نترك أفراح الأنجال ونأتى إلى الزواج بعامة وهو فى ذلك العصر لا يخلو من الطرائف. يقول المؤلف: (كانت رسومه تتم خفية عن الزوجين، فلا يعلمان عنها شيئا، وكانت الأسرة هى التى تتولى أمر الخطبة، أو ينيبون عنهم الخاطبة دون أن يكون للخطيبين نفسهما أية إرادة . بل لقد كان الغلو فى ذلك يصل إلى حد أن بعض أفراد أسرة الخطيب نفسها لا تعرف شيئا عن خطيبة ابنها إلا ما ترويه (الخاطبة) وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة، فبعد أن إنتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجا لابنتها، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة!!

وإذا كان تدفق الخير، واردا فى الأفراح لانبساط النفس فتنبسط الكف ثم طبيعة الفرج نفسه وهو يزدهى الإنسان، فإن العجيب أن يروى المؤلف (كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب و «الضحايا» من الجاموس أو البقر ثم «الكفاره» وهى عبارة عن جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبئت الصناديق من الخبز، كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانا أو مشاة ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية، وقراء دلائل الخيرات.. وبعد الإنتهاء من وصف الموكب الجنائزى يقول (وتنحر الذبائح عند باب القبر عند وصول النعش وتوزع لحومها على الفقراء).

إذن هو الإحسان والعطاء يلزم ويلازم الأفراح والأتراح سواءً بسواء.. حتى الموت لا ينسى المرزوئين الخير.

الثورة العرابية

سبقتها ثورة فكرية أنفجرت وفجرت مشاعر النفوس ضد الديون وضد تدخل الأجانب.. ودخل الحلبة أدباء وخطباء ومن وراء هؤلاء جريدة «الطائف» حيث كان يكتب عبدالله النديم وجريدة «المفيد» حيث يكتب حسن افندى الشمسى.

(وانقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد، ولم يبق مجلس للسمر أو للإحتفال بعرس أو غيرها إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد إقصائهم عنها وغيرهم. حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل فى اى فرح تغنى الليلة؟ «أجاب» فى الفرح الفلانى مع عبدالله النديم)

واشتغلت مصر بالثورة العرابية وعاشتها فى حماس جارف.. كانت الثورة حلم مصر التقليدى بالمخلص بل تجاوز تأثير الثورة والثوار حدود مصر إلى خارجها فى كل قطر. يقول المؤلف (شغلت الثورة العرابية أذهان الشرقيين قاطبة ولاسيما الشعب الهندى، حتى علمنا أن السفارة الإنجليزية فى الآستانة، ابتاعت من صاحب جريدة (الجوانب) التى كانت تصدر يومئذ باللغةالعربية، مليون نسخة من العدد الذى فسرت فيه ترجمة الإرادة السلطانية، إلتى أعلن فيها عصيان عرابى، لكى توزعها فى الهند وتستعين بالأثر الذى تحدثه على إخماد التشيع للعرابيين، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر إنجلترا بشر العواقب.

وهكذا اجتمع على عرابى الإنجليز وديلسبس ورشوة الانجليز، البدو، ومنشورات الخديوى يقول المؤلف.

(ومما ساعد على نجاح الإنجليز، أن الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا (رئيس مجلس النواب مندوبا خديويا، وبمعيته بعض رجال سموه لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الدعوة، وخصوصا بين العرب، لمساعدة الجيش الإنجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديوى. أضف إلى ذلك الهبات المالية التى كان الإنجليز يغدقونها على العريان. وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الإستعلامات الانجليزى).

وتوالت الأحداث سراعا ودفعنا الدم والأيام وعلى أرض التل الكبير وحده بل على امتداد سبعين عاما تساقط فيها الشهداء شهيدا وراء شهيد.

وما أجل المفدى والمفتدى.

وإن المرء ليقف حائرا أمام شخصية توفيق.. إن صورته فى هذا الكتاب تختلف إختلافا كبيرا بين البداية والنهاية كانت بدايته واعدة. سأله مراسل التيمس عن الخطة التى ينوى اتباعها فى مصر فقال له فى وضوح وحسم إنه لا يرغب فى عودة النظار الأجانب وإنه معتزم السير فى الإصلاح بأمانة وإخلاص وفى جو خال من الدسائس وأن أوربا يجب عليها إن تعطى مصر الوقت الكافى لبيان خبرتها وحسن إدارتها، وأن لا مانع مع ذلك من استخدام الأوربيين، كمرشدين لا مسيطرين، وكان مما قاله للمراسل فى شأن رجوع الهيمنة الأجنبية ألا فلتقطع أسباب المخادعة والمناظرة والإنتقام.

وفى هذا الرد حكمة وكياسة وحسم ودلالة أخرى يستشفها التحليل من خطابه تكليف رياض باشا بتشكيل الوزارة (النظارة) لم أقصد برأسى مجلس النظار أن أعيد (السطوة الشخصية.. وإنما راعيت فى ذلك ضرورة الحال. وصلت مع الرغبة فى تقريب علاقاتى بأعضاء النظارة فلم يكن فى خاطرى عزم نهائى، خصوصا فيما يغاير المبدأ الذى اتخذته يوم ولايتى وهو أن أحكم مع مجلس النظار، وبمجلس النظار).

وهو منحى عاقل رشيد

فى بدايته استهل بزيارة الفيوم فدعاه أهل الصعيد فلبى الدعوة وزار أقاليم الصعيد أقليما أقليما وفى كل أقليم كان يؤدى الصلوات مع الناس ويوزع الصدقات ويزور البيوتات الكبيرة وكبار رجال المدينة ومدير المدينة فى بيته فى بساطه وتواضع. هل هذا الذى قال لعرابى فيما بعد «أنتم عبيد أحساناتنا»!!

كان يدعو فى زياراته مستقبليه إلى موائده. كان يطوف المدينة راكبا جواده بلا استحكامات.. بلا مدرعات بلا شل مرور يسير والطيبون من أهلنا فى المدن يحيطونه بمشاعرهم وليس بمستغرب فقد أحاطوا اسماعيل على الرغم من الديون وما نجم عنها فى طريقه إلى المحطة بعد خلعه من العرش. إنها مصر النبيلة.

كان توفيق فى بدايته يبنى المساجد على نفقته الخاصة. ويشجع التعليم إلى الحد الذى يشهد الإمتحانات ويمنح الجوائز كان ينشىء المدارس ويدفع نفقات تعليم بعض التلاميذ.

حدد توفيق احساسا منه بضائقة البلد، المخصصات الخديوية ثم اختزلها وضغطها. يقول المؤلف (كان أول عمل أفتتح به عهده تنظيم مخصصات الأسرة الخديوية. اذ كانت مرتبات أفرادها فى عهد إسماعيل غير محدودة ولا معلومة حيث كانت الخزانة تحت تصرفه، يأخذ منها ما شاء ويهب منها لمن يشاء. فرأى الخديوى توفيق أن يحدد هذه المرتبات وأخذ مجلس النظار بناء على هذا الرأى يعين هذه الرواتب، ثم عاد توفيق وتنازل عن ٢٠,٠٠٠ عشرين ألف جنيه من مرتبه لإضافتها إلى مرتب والده ثم أمر بإلغاء المرتب الخاص بوالدته وحرمه فاقتصد بذلك خمسة وخمسين ألفا).

وهنا يتجسد عنصر المشاركة وعنصر القدوة الحقيقية.

هذا حين قرر زيادة الميزانية المخصصة للتعليم إلى الضعف. وصدرت لائحة بتنظيم أعمال الرى وتوسيع نطاقها وروجعت القوانين المصرية..ولكنه استسلم لدسائس القصر ووشايات ممثلى الدول الأجنبية الذين كانوا يخشون الوطنيين وحركتهم الفكرية ولم يفطن إلى أن هؤلاء المنتفعين، أصحاب غرض ومصالح شخصية.. لقد آفاق أخيرا ولكن كان الوقت متأخرا.

يحكى المؤلف أنه بعد موقعة التل الكبير المشئومة سعى إليه المتزلفون والأجانب لتهنئته ولكن توفيق بكى. يقول المؤلف (أما توفيق فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن إنكسار العرابيين يؤول إلى

توطيد عرشه، فقد عز عليه أن يتم له ذلك على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه. وقد كان سموه من الأمراء الذين نصبو نفوسهم على عروش وطيدة الأركان، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها وليس على عروش واهية قائمة على رءوس الأسنة وشفا السيوف وإذا كان الإرتياح الذى بدأ على محياه بانهزام العرابيين مشوبا بالحزن وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة ورود النبأ معبرة عن شعوره أصدق تعبير).

لقد خانه التوفيق كما خان عرابى كان باستطاعتهما أن يتلاقيا فى طريق الإصلاح وإقالة عثرة البلد وفى حياته لهما حياة وكرامة..

ثم ذهب توفيق وعرابى بعد أن تجرعا غصصا شتى ولكن مصر فى النهاية هى التى دفعت الثمن.. مصر التى لم تبرأ جراحها إلا بعد سبعين عاما.

ولكنها فى النهاية هى الباقية.

قضايا التاريخ الكبرى

المؤلف الأستاذ محمد عبدالله عنان المحامى

والكتاب لون مستحدث من الآداب التاريخية القضائية.

أو كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمته: (وصف للوقائع، فيه التدقيق التاريخى المستند إلى الوثيقة المؤكدة الثبوت، وتقدير صالح لمواقف الإتهام والدفاع مأخوذ فيه بميول أهل العصر الذى وقعت الحادثة فيه أكثر من الأخذ بقواعد العدالة السامية المطلقة التى لم تهبط إلى مستوى الحياة الإنسانية يوماً من الأيام والتى ستظل أملا كبيرا يستكن فى أفئدة العظماء، البائسين بعظمتهم، الذين يفنون حياتهم سعيا وراء استنزال هذه العدالة من مقرها الأسمى فتأبى أن تهبط إلى حيث كانت الجريمة أساس الحياة بدء ظهورها).

استهل الكتاب بمحاكمة «مارى ستوارت» ولم تكن محاكمة ملكة ايقوسيا إلا مهزلة قضائية بل كانت مكيدة شائنة دبرتها لها اليزابيث ابنة عمها، ومالأها وزراؤها لعوامل سياسية ودينية.. وكان ذلك ١٥٨٧م.

قال فولتير عن هذه القضية (لم يشهد التاريخ محكمة أبعد عن الإختصاص الذى تدعى، وإجراءات أشد بطلانا، فقد قدمت إليها بصور بسيطة من رسائل،ولم تقدم إليها الإصول قط، وأخذت من المتهمة بشهادة أمينيها مع أنها لم تواجه بهما قط، وزعمت أنها ظفرت بالدليل القاطع من اعتراف ثلاثة من متهمين أعدموا وكان فى الاستطاعة تأجيل إعدامهم حتى يواجهوا بالمتهمة.

ولو اتبعت أبسط الإجراءات التى تقضى إلعدالة باتباعها نحو أقل الناس، وإذا كانت الأدلة قد نهضت على أن مارى استوارت تبحث عن المساعدة وعن المنتقمين، فقد كان من المتعذر اعتبارها مجرمة.

«لم يكن لإ يزابيث عليها سوى قضاء القوى على الضعيف المنكوب».

ويقول السير والترسكوت: (إن الأدلة التى قدمت على إتهام ملكة ايقوسيا لم يكن فيها ما يكفى لإزهاق حياة أخس المجرمين، ومع ذلك فقد كان للجنة من القسوة والنذالة ما أعتبرت معه مارى مجرمة، وصادق البرلمان الإنجليزى على ذلك الحكم الظالم».

وهكذا نفذ حكم الإعدام فى ملكة هى فى الوقت نفسه ابنة عم الملكة الحاكمة فى ذلك الوقت.. لقد كتبت إليها قبل النهاية خطابا يذيب الحديد ويفتت الصخر ولكن يبدو أن الظلم ظلام لاشية فيه تشبه النور.

كتبت مارى استيوارت ملكة نيقوسيا الى إليزابيث ملكة إنجلترا فى القرن السابع عشر تقول:

أطلب إليك بعد أن يروى أعدائى ظمأهم من دمى البريء أن تسمحى إلى خدمى المحزونين أن يحملوا جميعا جثتى لتثوى فى أرض فرنسا.

ولعلك لا تأبين على ذلك الطلب الأخير فتسمحين على الأقل بحرية الأبدية إلى جسد فارقته الروح خصوصا وإنهما حين اجتماعهما لم ينعما قط بالحرية والراحة.. وأريد أن أعرف ردك الأخير على طلبى الأخير).

ورفضت إليزابيث واستدعت الكونت أوف كنت والكونت شروزبورى وطلبت إليهما إبلاغ غريمتها مارى استوارت، حكم الإعدام، الذى تسلمته هادئة وكانت مريضة فتمددت فوق فراشها بعد أن إرتدت خير ملابسها ولم تنس أن تستحضر منديلا موشى بالذهب لتحجب به عينيها فى اللحظة الأخيرة..واستغرقت فى صلاة جادة.. حتى دوت أرجاء القصر بصلصلة السلاح وغصت ساحته بجماعة كبيرة من الفرسان. وكان الصبح قد تنفس، فنهضت الملكة بعد أن سلخت ليلها ساهرة.. ثم دخلت إلى غرفة الصلاة وجثت تصلى.. فلم تلبث حتى قرع الباب بعنف، وأتى حاكم المدينة ليخطرها بأن الساعة قد أزفت، فنهضت قائلة: هيا.

وتبعت الملكة الشابة، الحاكم راجية منه أن يساعدها على السير.

ثم اخترقت الساحة الكبرى يحفها ذلك الجلال الذى كان لها طبيعة لازمة وهى تجيل فى الحضور نظرات وديعة هادئة.. وإذ تقدم السير «أمياس بوليت» ليساعدها على اجتياز السلم قالت له: شكرا لهذه الرقة ياسير أمياس.. أتراها كانت جادة أم كانت تسخر.. ممن يسمى ويذبح.

وتقدم إليها قسيس بدلا من قسيسها الذى طلبته مرارا.. حتى هذا الطلب رفض!! أى تنكيل وأى قسوة.

أخذ القسيس الرسمى يعظها فى لهجة عنيفة فطلبت إليه أن ينسحب وأفهمته أنها ترغب عن وعظه وأخذت هى تصلى بخشوع وحرارة فغلب الانفعال على الحاضرين.

ثم دنا منها الجلاد لينزع بعض ثيابها، فأفهمته أنها ستتولى ذلك بنفسها وساعدتها وصيفتها.

وأمامها جثا الجلادان وطلبا إليها طبقا للتقاليد الإنجليزية أن تصفح عنهما لإعدامهما إياها فأجابتهما: (إنى أصفح عنكما من كل قلبى لأنكما ستضعان حدا لكل آلامى).

ولبثت مارى استيوارت جالسة فى مكانها لإعتقادها أن رأسها سيقطع بالسيف إتباعا لما تقضى به إمتيازات الأشراف فى مثل هذه الحال ولكن الجلاد جعلها تجثو، وتضع رأسها فوق النطع، ثم أشهر فأسه!!!!

ورفع الكونت شروز بورى (ليت حرف الزين ترفع عنه النقطة) عصاه ليؤذن الجلاد بالضرب فهوت فأس الجلاد وارتجفت يده من نحيب الحاضرين من موظفى قصرها.. ولم تسقط الرأس إلا بعد الضربة الثالثة! فرفعها حينئذ إلى الجمع المحتشد وصاح كالعادة: «أدام الله الملكة إليزابيث»!!!

يفعل هذا الأوربيون الذين يكونون جمعيات الرفق بالحيوان والذين يتظاهرون اليوم بالرأفة على الدجاج من الذبح ثم يخنقونه بطريقتهم.

إذا استثنينا الحجاج فى الدولة الأموية.. والسفاح والمنصور فى الدولة العباسية وسليم الأول العثمانى الذى شنق طومان باى ربيب مصر على باب زويلة، لا نجد فى الإسلام وفى أوج نفوذه هذه القسوة.

وحتى هذه القلة التى ذكرتها لم يقتل أحدها، غريمه، بالفأس!!!

إنى مصرية لا أمت إلى مارى ستيوارت بصلة ولم أرها بالطبع ولكنى أحس بالدوار ودموعى تنهمر.. إنسانة.

ولم يمض اثنا عشر عاما حتى تفوقت إيطاليا على إنجلترا فى هذه الروائع الدموية فوقعت فى روما سلسلة من الجرائم والخيانات الشائنة من خروج على قوانين الطبيعة والدين وإنتهاك حرمات الأخلاق والإنسانية.

أقرأ فى الكتاب فصل (بياتريس) ١٥٩٩.

وإلى جانب هـذه النماذج الشائهـة ارتفع فى فرنسـا نموذج يشرف به الكاتـب والإنسان.. إنه فولتير الذى كتب فى آخر أيامه رسالة عنوانها (الدفـاع عن المظلومين) لقد جند فولتير نفسه وقلمه عندما نفى (بيـير كالا) للدفـاع عنه لإعتقاده أنـه مظلوم.. يقول فولتيـر (لماذا يُقضى بنفيـه إذا كان بريئا، ولم يكتفى بالنفى إذا كان مجرما) وفى قوله هذا سخرية لا تخفى.

لم يقتنع فولتـير بالحكم على (كالا) فأخذ يجـمع الوثائق وأوراق التحقيقات والمحـاكمة من تولوز وكـتب مذكرة ببـيان رائع بدأها بسـرد تاريخ أسرة كـالا بأسلوب روائى مؤثر واسـتطاع أن يسبغ على المسـألة صبغة وطنـية وأن يجعل منها مـشكلة كبيرة حـتى اعتقـد سواد المفكرين عندئذ سواء أنصاره وخصومه أن شرف فرنسـا أصبح يقضى بإعادة النظر فى حكم تولوز فإما أن ينقض وإما أن يؤيد.

وقد كللت جـهود الفيلسوف بـالظفر فقضت لجنة النقـض بقبول الإلتمـاس شكلا ثم قضى مجلس الملك بنقض الحكم.

وفى ٩ مـارس سنة ١٧٦٥ أعلن برلمان باريس (إعادة إعـتبـار) الأب كالا وبكى فـولتيـر من الفرح.

وبكت العدالة من زهور الانتصار

وبكيت أنا هذه المرة من اعتزاز بضمير الكاتب وهو ضمير أمته.. إن الكاتب موقف..

وفى الكتاب قصـة تزخر بالمتناقضات.. إنهـا قصة (مارى انطوانيت) سـألت مارى تريز ملكة النمسا ابنتها الجـميلة التى لم تتجاوز الرابعة عشـرة: أى شعب تطمح نفسك إلى حكمـه؟ فأجابتها أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر.

فى ذلك الوقت كـان الملك لويس الخامس عشـر يفكر فى محـالفة النمسـا لتكون مع فـرنسا جبهة ضد روسـيا فلم ير الملك العجوز وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة مارى انطوانيت واستشار سفيره فى النمسا المركيز ديرفور فى شـأن هذا القران فبعث تقريرا جاء فيه:

إنها أميرة كاملة سواء من وجهـة الكمال الخلقى والمعنوى، أو جمال المحيا والقد.. وهى ذات ذكاء خارق وخلال رفيعة.. طروب مبتهجة، تحب أن ترضى الناس، وتترفق فى محادثة كل إنسان، ولها أبدع المزايا التى يمكن أن تؤكد سعادة الزوج.

وأعلنت الخطبة. وسافرت مارى انطوانيت إلى فرنسا وسارت فى موكب ملكى بين هتاف الشعب وعزف الموسيقى وبين الأزاهير والشذى.

وعقد القران واستمرت الحفلات والمراقص أيام عديدة وكتبت الأميرة الجميلة إلى أمها الملكة مارى تريزا (لا أستطيع ياأمى العزيزة أن أصف لك مظاهر السرور والعطف التى أغدقت علينا.. وقد صافحنا الشعب بالأيدى وهو من بواعث السرور الجم فليس أنفس من هذا الحب.. لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط).

ولكنها نسيت أشياء وأشياء.

يقول المؤلف: (كان ذهنها بطبيعته قويا قاهرا، ولكن كانت تنقصها المعارف العامة الراسخة، وينقصهاالعزم المستنير الثابت الذى تستلزمه مهام الحكم.

وكانت ذات شغف بالرئاسة دون خبرة بمزاولتها، وذات ذكاء ينقصه كل فهم لظواهر السياسة والإجتماع.

وكانت نزعاتها قوية ولكن سطحية جدا، وأوامرها التى تلقيها دون أن تزن أو تقدر عواقبها أشبه بأهراء قاهرة لحسناء وافرة التيه.

بل كانت القوة عندها، قبل كل شيء ترضية للكبرياء والتعالى فكان يسرها أن تكون قوية لتمتن على أصدقائها وتنكل بأعدائها.. ولم تكن سياستها تنفذ إلى أبعد من نزعات فؤادها، فكل مقاومة لأهوائها تثيرها وتسخطها، وتدفعها إلى التشدد فى تحقيق فكرتها وإدراك غايتها، وتفقدها كل شعور بالعدالة وحسن التقدير).

وعلى العكس كان لويس السادس عشر.. كان خبيرا بالمواقف السياسية والاجتماعية غير أن ضعف عزيمته وشديد تردده، وطاعته العمياء لزوجه، كانت تذهب كل قيمة لخلاله ومزاياه

وقد كان على جانب عظيم من الرفق والأمانة والنشاط ولكنه كان يؤثر السكينة والوفاق الزوجى على أية فكرة صائبة يراها، أو أى إجراء حكيم يحسن اتخاذه وبينما كان ينفق أوقاته فى العزلة، أو فى صناعاته التى كان مولعا بها، كالبناء والحدادة كانت زوجه تتولى الحكم دونه وتغدق ضروبا شائنة من الإيثار والعطف وتبذر المال دون حساب فى نفقات جنونية وفوق موائد الميسر

وترفع وزراء وتخفض آخرين وتعزل وتولى وتنهى وتأمر وتفتن فى صنوف اللهو الذى غدا أول مهام البلاط.

وجاءت النهاية الطبيعية والمحتومة.

وشهدت مقتل زوجها ثم أُنتزع منها ابنها ولى العهد وسجنت وجردت فى سجنها من كل أسباب الراحة بل (لم يبق لها من ملابسها سوى ثوبين أحدهما أبيض والآخر أسود وقد بلى كلاهما وتمزق.

وقد غدت مارى انتوانيت فى ذلك الحين فكرة لا تعرف، غدت شبحا هزيلا سقيما شاحبا، وغدا شعرها الأشقر البديع أبيض كالثلج.

وحين دخل عليها الجلاد، السجن أوثق يديها وقص شعرها ذلك الشعر الذى طالما تاهت به أيام عزها والذى ببضته الخطوب قبل الأوان.

وحين سقط رأسها المضرج بدمه حملت جثتها الهامدة مع جثث أخرى إلى مقبرة المادلين وظلت ملقاة فى العراء زهاء أسبوعين حتى دفنها أحد الحفارين فى ركن مجهول من تلك المقبرة.

وفى ذلك يقول الفونس دى لامارتين فى كتابه (تاريخ الجيروندبين)

وهكذا زهقت تلك الملكة الطائشة فى السعادة، السامية فى البأساء، الثابتة فوق النطع، ومهما كان من رأى التاريخ فسوف يذرف دموعا خالدة فوق هذا النطع.

أمرأة يأتمر الجميع بها ويدعوها شعبها لترقى عرشه ثم يضن عليها حتى بقبر تثوى فيه.

***

وهكذا الحياة والناس

كم فى التاريخ من فظائع.. وكم فيه من روائع

والفيصل بينهما قراءة التاريخ ووعيه واستيعابه والاستفادة من أحكامه وحكمته.. من عبرته وكلمته التى تكون عادة فصل الخطاب.

كم مجّد عظماء أوفياء، وكم ندد بآخرين

والذكى الألمعى هو الذى يستوعب المعنى ويستقرىء السطور والعصور.

أثر الشرق فى الغرب

خاصة فى العصور الوسطى

ألف هذا الكتاب المستشرق الألمانى جورج يعقوب وترجمه بتصرف الدكتور فؤاد حسنين الذى يقول إن المؤلف لاقى خصومات شديدة من المستعمرين أولا، الذين كان جل همهم تحطيم الشرق ماديا وروحيا، ثم من أنصار الدراسات القديمة أعنى المدرسة الكلاسيكية التى كانت تشيد بمجد اليونان وترجع كل عوامل الرقى الأوروبى إلى اليونان واليونانيين. وقد نجحت هذه المدرسة سياسيا فحررت اليونان من تركيا وجمعت الشعوب الأوربية على هدف واحد ألا وهو وجوب التعاون سويا والوقوف معا فى وجه الشرق والشرقيين. وقد ظهرت آثار تلك المدرسة فى أوائل القرن التاسع عشر وفى وقوف أوربا لمحمدعلى بالمرصاد وفى خلق المسألة الشرقية.

والحقيقة أنى أجد نفسى أمام كتاب يستحق دراستين لا واحدة:

دراسة لكتاب

ودراسة لمؤلفه. فمؤلف هذا الكتاب طراز نادر فى طاقات القدرة على:

التعلم.. على العطاء..على الإنصاف والانتصاف.

درس المؤلف علوما.. وآدابا.. وتعلم عدة لغات وبحث فيها وترجم عنها.

درس المؤلف التجارة العربية وألف فيها كتابين. ودرس المؤلف نبات الشرق وحيوانه دراسة دقيقة حتى قال المستشرق (فلهوزن) مرة:

يجب على حكومتنا الألمانية أن تقيم حديقتين لحيوان الشرق ونباته وتعين «جورج يعقوب» مديرا لهما!

كتب المؤلف الكتب عن جغرافيى العرب وشعرائهم وحياة البدو فى العصر الجاهلى، والمعلقات، ولامية العرب وترجمها إلى الألمانية كما درسهادراسة مقارنة وذكر جميع المراجع التى تعرضت لها.

ومن العجيب أنه عنى بتبسيط قواعد النحو العربى والذى نشره عام ١٩٠٨.

درس التوراه وقارن نشيد الإنشاد بالشعرالعربى. أهتم بالمسرح العربى واستطاع بعد جهد عظيم كلفه دراسة السنسكريتيه والصينيه تأريخ هذا الفن المسرحى المعروف بخيال الظل وسافر إلى تركيا جريا وراء هذا الفن حيث كان يعرض هناك فى شهر رمضان.

وبالطبع درس التركية بل امتدت أسفاره شرقا إلى الصين واليابان، وغربا حتى ايسلنده حتى تم له العثور على كثير من المسرحيات العربية التى ألفت خصيصا لهذا النوع من التمثيل. واهتدى إلى شخصية محمد بن دانيال.

واتفق سنة ١٩٣٠ مع مستشرق آخر وهو (بول كالا) على إصدار مجموعة من الكتب حول هذا اللون من الأدب العربى، وقد تم لهما هذا، ولكن كتاب جورج يعقوب عن خيال الظل يعتبر الوحيد والأول من نوعه.

وكما ألف فى العربية ألف بالتركية كثيرا فتناول الشعب التركى وآدابه قديمها وحديثها وعنى بدراسة الدين الإسلامى وأثره فى الشعب التركى فألف فى الدراويش والبكتشيه.

كما نشر كثيرا من الوثائق التركية القديمة خاصة ما يتصل منها بتاريخ المجر.

درس المستشرق «جورج يعقوب» الفارسية

ودرس من خلالها التصوف الإسلامى كما درس «حافظ» و «نظامى» وترجم إلى الألمانية الكثير من القطع النثرية الفارسية فى بحثه عن ناصر الدين شاه ورحلته إلى كربلاء.

ومن الطريف أنه اهتم أيضا بالسجاد وتاريخه.

يكفى أنه أستاذ «أنوليتمان) الذى عرفته الجامعة المصرية فى عهديها الأهلى والحكومى أستاذا، ومجمع اللغة العربية عضوا متميزا وممتازا.

ومن حظى أننى فى كلية الآداب درست على ليتمان علم اللهجات. وكان الدكتور طه حسين فى آخريات سنيه فى ذلك الوقت ولكنه يحرص على أن يحضر إلى كلية الآداب ويحضر معنا محاضرات د. ليتمان. وكان الدكتور طه حسين يأبى أن يجلس على كرسى خاص. يصر على أن

يجلس معنا فى مقاعد المدرج.. ويقول وهو الذى كان يوما وزيرا للمعارف إن ليتمان أستاذى ومهما وليت من المناصب فإن من حقه ومن واجبى أن أظل أجلس منه مجلس التلميذ من الأستاذ.

وكان درسا رائعا لنا نحن تلاميذ طه حسين والعقاد والزيات وأحمد أمين واخوان هذاالطراز.

ويقف «جورج يعقوب» وقفه طويلة عند أختراع الهند الأرقام التسعة ١ , ٢ ،٣، ٤، ٥، ٦ , ٧، ٨، ٩ ولكنه عند «الصفر» يقول:

أما «الصفر» فلم يجار بقية الأعداد فى تطورها وسلك طريقه الخاص. وهذه الخاصية تعتبر بحق من أحسن ما اهتدى إليه العقل البشرى، هى من إختراع الشرق، وقد مرت بأدوار هامة فى تاريخ الثقافة البشرية. فالثابت أن الغرب لم يعرف الصفر قبل القرن الثانى عشر الميلادى بينما تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه فى القرن الثامن وكانوا يرسمونه حلقة.

تكلم عن أثر الشرق فى الورق والطباعة والمواصلات والبوصلة. والحمام الزاجل والعربة.

سجل للشرق أن الغرب أخذ عنه فنونه الزخرفية أو التطبيقية من أقمشة وسجاد والخزف ثم الخزف ذى البريق المعدنى وفنون العمارة وعن تأثر الفن القوطى بالشرق وعن أثر الإسلام بالذات فى فن الرسم الأوربى.

وسجل للصين أن المسرح الأوربى فى القرن الثامن عشر تأثر بالفن الصينى فأخذ عنه النوع الغنائى التمثيلى المعروف بالأوبريت.

وأخذ الغرب عن الشرق لعبة الشطرنج والطاولة التركية والزرد الفارسية

يقول المستشرق جورج يعقوب:

ولولا تحريم الإسلام الخمر ما انتشرت القهوة فى العالم الإسلامى وانتقلت إلى أوربا وقضت فى ألمانيا على مشروب الألمان القديم (البوظة المعروفة باسم هرز براى).

واللفظة العربية القديمة (قهوة) تدل أصلا على النبيذ.

ومن الطريف قوله:

ومنافس القهوة هو الشاى وقد أرسلته الصين إلى أوربا فى القرن السابع عشر.. وقد أثر هذا المشروب ذو الرائحة الطيبة فى الثقافة والمجتمع والإقتصاد والعلاقة بين الشرق والغرب تأثيرا بليغا ويجب ألا ننسى الشاى وضريبة إستيراده التى دفعت أمريكا إلى إعلان الحرب ضد إنجلترا والحصول على استقلالها.

أخذ الغرب عن الشرق: النخلة وعممها بعد إحضار عبدالرحمن الأول نخلة فى القرن الثامن الميلادى من الشام إلى أسبانيا وأنشد فيها بيتيه المشهورين:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بنّى وعن أهلى

أثر الشرق أيضا، بمناسبة النخله- فى حدائق أوربا وحقولها وطرقها وشوارعها حيث تقوم على جوانبها أشجار الكستناء البرية، وفى الخريف تخرج ثمارها الوضاءة الجميلة. فقد جلب هذه الشجرة وغيرها من مختلف الأشجار والأزهار، الأتراك عند تقدمهم من آسيا إلى أوربا.

وأخذت أوربا عن مصر فيما أخذته عن الشرق صناعة التفريخ فقد تحدث صاحب كتاب اسفار (ريتر) عن رحلة قام بها إلى مصر سنة ١٤٦٠ م قال :

وغير بابلون نجد مصر القديمة وهى مدينة توجد بها معامل كثيرة للتفريخ، وذلك بوضع البيض فى أفران ذات حرارة خاصة وبعد مضى زمن تفقس الكتاكيت وتعرض للبيع.. والخبر نفسه يذكره (جريملز هوزن)

وفى القرن الثامن عشر نجد (أدلينج) يكتب مقالا عن الحمام الزاجل يعترف فيه أن الشرق سبق الغرب فى استخدامه والواقع أن مصر عرفته قبل أوربا بما لا يقل عن ألف عام

هذا قليل من كثير مما جاء فى هذا الكتاب.

مقدمة

كتاب (قيم عظيمة فى حضارتنا القديمة)

ككل شيء عظيم خالد، الحضارة المصرية.

يكتب فيها، وعنها، الكاتبون جيلا وراء جيل ، ويظل فى أعماقها، وظاهرها كثير يرويه، نهر دافق يقول.

وليس نهرا كالنيل يروى ويروى تاريخ التاريخ على أرض صنعت النهار.. وصنعت الإنسان وكانت صناعتها الكبرى، وإبداعاتها الكبرى، وعطاءاتها الكبرى:

الحضارة

حضارة باتعة.. رائعة.. مبدعة.. ممتعة..

ينقدها عداتها فتطور أكثر لأن الصدق باق.

ويتغنى بها بُناتها ومعهم عشاقها حتى من الغرباء فتشرق إشراقة

وجه الحبيب رأى نفسه فى مرآة حبيبه.

***

بداية أقول ألف هذا الكتاب : الأستاذ محمد العزب موسى

قرأت الكتاب لأكتب مقدمة له فسرقنى من نفسى وكدت أفرغ منه، ولم أكتب بعد، سطرا واحدا.

وأعدت قراءته فوجدت جديدا على القارىء العام أو السواد الأعظم على الأقل.

بل وجدت جديدا على أصحاب التخصصات الأخرى. من هذا، أبعاد قصة فرعون موسى. وهنا أستطيع أن أضيف إليها لأهميتها.

قد يعرف خاصة الخاصة أن الأمم لا تقاس بفرد ولو كان فرعون مصر وأدع جانبا أن فرعون موسى برأه واحد من كبار رجال الدين هو الامام محيى الدين بن عربى الذى يقول فى كتابه

«فصوص الحكم»: (بإيمان فرعون ايمانا لازما، وأنه لقى ربه طاهر امطهرا، سالما من العيب، بريئا من الذنب).

وظاهره فى هذا الإمام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب، مستندين إلى الآية الكريمة:

﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾ سورة يس آية ٩٠

وجعله ابن عربى آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى.

﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾.

مرة أخرى أقول أو:

أدع جانبا أنه إستشار قومه وعمل بنصيحتهم وأن ما حز فى نفسه، المفاجأة القاسية التى عبر عنها بقوله (آمنتم به قبل أن آذن لكم؟)

حتة بروتوكول تحكم تفكير ملك سليل الملوك.

أدع جانبا، أنه ما من أمة آمنت كلها أو حادت كلها عن الإيمان.

أدع جانبا، أن والد ابراهيم النبى، قد كفر

أدع جانبا أن فرعون موسى، بشر..

موسى فى نظره، الطفل الذى وجدوه على شاطىء النيل مجهول الأب والأم

رباه فى قصره وعلمه علم مصر.. حتى السحر تعلمه فى أهناسيا من أعمال بنى سويف.

هل من طبيعة البشر أو طبيعة الأشياء أن يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه، وللوهلة الأولى، داعيا، هورييب قصره؟ أضف إلى هذا أن فى نفسه، منه، ما فيها، بعد أن قتل أحد المصريين.

وقد كذبت قريش -إلا قلة قليلة- بعد أن قطعت الإنسانية من عمر الزمن دهورا بعده، الزكىّ السرىّ الصادق الأمين وهو الذؤابة منها شرفا ومحتدا؟

لم يكن عند قريش عذر عصبية الجنس أو عقدة الثأر القديم أو مبرر الإستعلاء؟

لقد كان موسى فى نظر فرعون كما جاء فى القرآن الكريم، قاتل أحد رجاله حتى ليقول له فى رنة ألم لا تخفى.. ألم ممزوج بالدهشة الحيرى:

(ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين.. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين)

ولم ينكر موسى ﴿قال فعلتها اذا وأنا من الضالين﴾

سورة الشعراء الآيات ١٧، ١٨، ١٩

آوت مصر موسى وربت وعلمت ولما اشتد عوده رأى فى طريقه مصريا، معاصرا من بنى إسرائيل يتنازعان كما يحدث فى حياة كل يوم من أختلاف على المصالح.. ودون أن يسأل السبب أو يقف على جلية الأمر، وكز المصرى فقضى عليه.

ثم خرج، مسرعا، إلى مدين.

ولم ينس ملك مصر.. ولا نحن مهما تقادم العهد.

(قال رب قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون)

القصص آية ٣٢

ألا يخطىء من ليسوا أنبياء.

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون؟

ألم يكن «اخناتون» متساميا موحدا نبيلا؟

هل ملوك الفرس جميعهم، قمبيز؟

هل خلفاء بنى العباس، كلهم، السفاح؟

هل سائر الفاطميين، «الحاكم»؟

وإذا كان فرعون موسى، مخطئا، فموسى قتل، منا، نفسا وإخوة يوسف ألقوا أخاهم الطفل فى الجب وكذبوا على أبيهم.

وأبناء يعقوب سفاحون عندما ذبحوا أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية.

***

إذا جاز أن يحسب علينا خطأ فرعون واحد فإن من المقابل، أن يحسب لنا أمجاد فراعين، يكفي الواحد منهم، أمه بأسرها، في باب المفاخر.

والاستاذ محمد العزب موسى يركز على قيم الفكر والعدل والفضيلة حين تركز الدراسات والكتابات على فن مصر التشكيلي دون فنها التعبيري وما أكثره وما أغناه وما أعمقه وهو منحى جدير بالإنتباه والإتجاه إليه.

هل قال بلد من البلاد ما سجلته مصر في متون الأهرام:

أنا لم أعص أوامر الإله

أنا لم أعق والديّ

أنا لم ألوث ماء النيل

أنا لم أصد الماء وقت جريانه

أنا لم أطفف في الكيل

أنا لم أغش في القياس

أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع

أنا لم أطفيء شعلة في وقت الحاجة إليها

***

وهي قيم خلقية.. وفي الوقت نفسه ركائز أساسية للدين.

ديمقراطية الدين:

مِلحَ سجله الكاتب.

ففي مصر، بعد الثورة الشعبية، تحولت العبادة من «رع» إلى «أوزوريس». وهذا يعني الكثير..

رع تتطلب عبادته وتتطلع عقيدته إلى السماء ومتابعة حركات الشمس، والكواكب والنجوم.. ولهذا كانت عقيدة الخاصة.

بينما عقيدة أوزوريس منتمية إلى النيل ونابعة من أرضه وزرعه.

عقيدة «رع» كانت تربط الخلود بالشواهد المادية من مقابر وتماثيل وتحنيط ومراكب شمس.

بينما عقيدة أوزوريس يحكمها الميزان وريشة العدالة.. والعدالة لا تفرق بين الناس مهما تفاوتت أقدارهم الإجتماعية.

على أن «رع» أُثِر، عنه، كما جاء في نصوص أحد التوابيت:

خلقت الأنهار العظيمة كي يستخدمها الفقير والسيد العظيم

وجعلت كل إنسان مثل أخيه، ونهيتهم عن فعل الشر ولكن قلوبهم هي التي لم تفعل ما أمرت به.

وكأنه يتنصل من التفرقة بين الناس

***

في مصر اشتكى الفلاح، واحدا من النبلاء وانتصر الملك، له، ورد إليه حقه.

وفي الكتاب وقفة «مقارنة» بين:

«بتاح حتب» و «لقمان الحكيم»

فقد لاحظ المؤلف أن:

- كليهما يوجه نصائحه إلى ابنه
- طول العمر
- إنتهاج فضيلة التواضع ونبذ الصلف والتكبر على الناس.

***

وفي الكتاب وقفة عند «قصة الخلق».

وكيف أنها حدثت بكلمة من بتاح الذي هو «قلب» و «لسان» الآلهة كلهم إذ أن بتاح نطق بأسماء كل الأشياء فوجدت من العدم.

واللسان ينطق بما في القلب وهكذا تكون كل الموجودات قد جاءت نتيجة للكلمة المقدسة التي نطقها لسان «بتاح» تعبيرا عن الفكر الذي في قلبه.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ٣١ م البقرة ٢

﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ٨٢ ك يس ٣٦

***

إننا إذا أضفنا إلى هذا توحيد مصر وقولها بالميزان والبعث والحياة الأخرى والثواب والحساب والعقاب والجنة والنار، عرفنا لماذا تأصل الإسلام فى مصر كما لم يفعل فى أى بلد آخر.

ونوه الكتاب بقيمة خالدة وغالية ورفيعة من قيم مصر القديمة.. الكتب والكتاب.

فقد جاء فى بردية من عهد الرعامسة:

- الكتب أكثر خلودا من الأهرامات.

- الكتب هى مقاصير وأهرام فى قلوب الناس

- إن كتابا واحدا لأكثر نفعا من بيت متين الأساس ومن مقبرة فى الغرب.. من قصر منيف ومن نصب فى معبد.

والكتاب فى نظر مصر القديمة:

لم يقيموا لأنفسهم أهراما من نحاس

ولا شواهد قبور من حديد

بل جعلوا من كتب الحكمة إرثهم الوحيد

كانت اضمامات البردى كاهنهم المرتل

وألواح الكتابة أبناءهم البررة

وكتب التعاليم، أهراماتهم

والقلم ابنهم

والصفحات زوجاتهم.

***

وهذا هو الفرق.

حين قامت دولة الرومان على البطش والحرب، وقامت دولة اليونان على تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد.. وطبعا السادة هم الذين يحكمون ويتعلمون ويكتبون ويرسمون الخ.

قامت حضارة مصر على الثقافة يأخذها ويعطيها كل ميسر لها، موهوب، وكم من عظماء الكتاب والحكماء فى مصر، خرجوا من صميم الشعب.. وعلى رأس هؤلاء، «ايمحتب» أول شخصية موسوعية فى العالم.

لقد كتب مجد مصر، المصريون جميعا. فالملك خيتى ينصح ابنه: (لا ترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع، بل قرب إليك الإنسان حسب كفاءته الشخصية).

تقول «كريستين نوبلكور»: (التلميذ المصرى القديم أول تلميذ فى العالم) من مقال لها بمجلة هيستوريك الفرنسية التاريخية فى عدد خاص عن التعليم والثقافة، قالت فيه:

إن مصر هى التى إخترعت الكتابة، والحساب، والمدارس، والتلمذه ومن يدرى لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك، لربما إتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر.

من تعاليم «خيتى» بن دوادف لابنه بيبى:

[عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب

تأمل: لا شىء يفوق قدر الكتب

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك

ليت فى مقدورى أن أظهر جمالها امام عينيك

إن الكتابة أعظم من أية حرفة]

وهنا يرسم «خيتى» صورة كاريكاتورية لسائر الحرف.

أعتز دائما بأنه حين عاد «حور محب» من حروبه منتصرا مظفرا، وأراد المثال المصرى أن يصنع له تمثالا يمثل الملك الإمبراطور، طلب إليه «وحور محب» أن يكون تمثاله على هيئة الكاتب المصرى! فى إحساس دقيق وعميق بما للكتابة من معان وهالات..

طلب «حور محب» هذا بوراثة حضارية من البلد الذى جعل للكتابة آلهة سماها «سيشات» وزوجها من إله الحكمه فى إحساس وثيق بما بين الكتابه والحكمة من سمات وشيات.

وفى مصر القديمة تبجيل المعلم

كان التلميذ ينادى معلمه «سيدى»

ولعله النداء الأب لقولنا فى الريف لعريف الكُتاب فى القرية (سيدنا)

وفى مصر الحديثة يقول شاعرنا شوقى:

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذى ... يبنى وينشىء أنفسا وعقولا

وكلمة أشرف فيها حس القداسة وهى غير (أعظم) أو (أكبر) ولم لا؟

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى

إن مصر الحديثة تسير على درب مصر القديمة فإذا التاريخ على أرضها منتظم الخطى لا تنقطع له مسيرة.

ولعل هذا التقديس للعلم من أسرار مصر. قد يفوتها الحكم.. قد تخسر معركة.. ولكنها فى القوة والضعف تشع العلم حتى لتقابل الغزو العسكرى، حين حدوثه، فى الفترات الحزينة، بغزو ثقافى.. يغزو الفرس، مصر ويطلب «دارا» ملك الفرنس فى إبان إشتداد مرضه، طبيبا من مصر.

ويتعالى الرومان بجهالة وجهامه، غداة الفتح، ثم يهتزون أمام سخريتها بهم ومنهم، فيحرمون على المحامين المصريين، الترافع، أمام محاكم الأسكندرية لأن السخرية المصرية تهز هيبة القضاء الرومانى.. ثم يؤول أمرهم فى النهاية إلى عبادة إيزيس فى الأسكندرية تقربا إلى الشعب المصرى ثم فى روما نفسها! وتنتقل عبادة إيزيس من روما إلى فرنسا فتسمى أكبر مدنها باريس أى بيت إيزيس ولعل الذين يرجحون هذا يستندون إلى أن «بيت» فى الهيروغليفيه يسمى (بره).. وايزيس فى الهيروغليفية «إيسه» أى (بر إيسه).. فباريس.

***

أعود إلى الكتاب.. والفصل الأخير من الكتاب عقد مقارنة شائقة بين مصر القديمة ومصر الحديثة أوضح فيها وجوه الشبه بينهما خاصة فى الريف وأحواله وحرفه وبيوته وأزيائه وعاداته وتقاليده بل أسماء المدن وكثير من ألفاظ الحياة اليومية بل القصص والأساطير.. بل الموالد والأعياد كمولد الحجاج فى الأقصر وهو خطوة بخطوة عيد آمون.. وقد فصلت هذا فى أكثر من كتاب.

إنها كما يقول الدكتور جمال حمدان ملتقيا مع المؤلف ومعى:

(وحدة الحياة على ضفاف النيل).

معنى يلتقى عنده المخلصون لهذا البلد وسط خضم النفاق والاسترقاق والاسترزاق.

معنى كبير جامع.. وحدة يجب أن نزكيها ونحييها فى نفوس المصريين خاصة النشء مناط الأمل فى إقالة العثرة الحاضرة، وموطن الرجاء.

وحدة يجب أن تلتفت إليها المدرسة المصرية التى تبدأ تدريس الأدب بالعصر الجاهلى ولا مانع عندنا من دراسته على أن يأتى فى توقيته الزمنى ولكن البداية هى البداية الباكرة والبكر.. هى مصر القديمة بما أبدعت من روائع خالدة فى الآداب والفنون والعلوم.

وحدة يجب أن يلتفت إليها التليفزيون المصرى باعتبار، التليفزيون كأداة، معلم الشعوب بما يملك من وسائل الاستهواء وشد العدد الأكبر على تفاوت التعليم واختلاف الثقافات.

وحدة الحياة على وادى النيل يجب أن تكون:

- نقطة تحول
- نقطة انطلاق

إن أزمتنا ليست بالدرجة الأولى أزمة أقتصادية كما يتردد ولكنها أزمة معنوية وأزمة أخلاقية.. أزمة إختراق الإنسان المصرى وهنا يكون تعريفه بذاته وانعطافه إلى تاريخه ليس افتخارا أو زهوا، ولكن بثا للثقة فيه وإنتشاله من وحدة اليأس وردا لغربته النفسية.. فيحترم نفسه ويجبر الآخرين على احترامه.

وهنا فقط تتخفف الحياة الحاضرة من العشوائية واهتزاز القيم، واختلال المقاييس.. فترشد وتستقيم مسيرتها وسيرتها.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ «م الرعد ١٣»

إنه التغيير

مفتاحا للحل

***

وبعد فإن قارىء هذا الكتاب، كما قرأته، لا يملك إلا أن يشكر المصرى الأستاذ محمد العزب موسى الذى كان صادقا مع نفسه .. صادقا مع تاريخنا..

وليس، قيمة، كالصدق فى كتابة الكاتبين.

مصر

فى قصة الحضارة

الحقيقة أن هذا العنوان هو الباب الثامن من الجزء الثانى من (قصة الحضارة) الذى ألفه «ول ديورانت».

وقد استغرق الجزء الأول البحث السابق ولكن (مصر) فى هذه القصة تستأدى وقفة طويلة يفرد لها الحديث.. بسابقتها فى الحضارة، وسالفتها فى المدينة وحقها على الإنسان والأديان.

لست وحدى الذى أقول هذا، مصرية من مصر، وبمصر، ولمصر ولكن الغرباء أيضا يقولونه بأبلغ بيان. ومن هؤلاء: جيمس هنرى برستد فى كتابه (فجر الضمير)، Capart فى كتابه «الفن المصرى» واليوم ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة).

حتى حين كتب عن «سومر» قال إن مصر (كانت مركزا إنتشرت منه الحضارة الشرقية) وقال عن أوربا وأمريكا إنهما استمدتا من الشرق الكثير وأن «الآريين» (لم يشيدوا صرح الحضارة- بل أخذوها عن بابل ومصر، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب، فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لما شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد).

***

ويغمز ول ديورانت، المؤرخ اليونانى «هيرودوت بقوله فى مجال الحديث عن تمثال «إبو الهول» الفيلسوف الذى يحدق بعينيه وهو ساكن لا يتحرك، فى الزائرين العابرين وفى السهل الأزلى- أنظر المقابلة هنا-.

يقول ديورانت (كانت الرمال تغطيه فى الزمن القديم، ولذلك لا يذكر هيردوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينيه أشياء كثيرة لا وجود لها فى تلك البلاد).

ويقف «ديورانت» أمام دلالة بناء الأهرام، شبه مذهول حتى ليقول؟

(ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء. وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم في طفولة التاريخ نفسها. لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهي تزن عدة أطنان وإلى علو خمسمائة قدم. وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاما كاملة في تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا).

وهنا اختلف مع «ديورانت» في نقطتين:

* أن مدة العمل في الأهرام عشرين عاما كما ذكر ولكن ليست «كاملة» فقد كان العمل ثلاثة شهور كل سنة أي مدة الفيضان الذى يغمر الأرض بالمياه.. وما يعنيه هذا من استقطاب فراغ الأيدى العاملة واستثمارها معماريا وفنيا وحضاريا وكان يعفى من البناء طوائف المتعلمين والكهنة.

يقول الأثرى الدكتور أحمد فخرى، لو أن الأمر سخره (لاستحال الإستمرار في حفظ الطقوس الدينية الخاصة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة فلدينا من العصر البطلمى، أي أكثر من ألفى سنة بعد موته، آثار تشير إلى أستمرار وجود كهنة «خوفو» حتى ذلك العهد).

أقول، إن الأهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبناتها كانوا يتبركون بها وبأصحابها.

وقد أثبتت الدراسات حرص الطبقات الكادحة على أن تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون، بما رسخ في نفوس الشعب من سيرته ومآثره.

* النقطة الثانية وهى تتعلق بالأجور فلم يكن الأجر، الطعام وحده بل ثبت لدينا وجود عملة ووجود هذا النص (كنت أنقد عمالى أجرهم قبل أن تغيب الشمس) كما ثبت وجود أحياء كاملة في هضبة الأهرام للعمال والمهندسين والأطباء تتبعها مدارس ومستشفيات.

مما يدحض السخرة المزعومة التي يلصقها المغرضون بهم ممن ينفسون عليهم هذا المجد.

وهناك نقطة أخرى غابت عن ديورانت فالأهرام ليست مقابر ولكنها تستهدف أغراضا متعددة، يقول أمين سامى باشا صاحب كتاب (تقويم النيل): إن النيل كان يجرى في ذلك العهد

بالقرب من الهرم. فكانت الرمال تطمر مجراه. وكانوا يقاسون فى إزالتها أشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح المائلة التى إذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الإنعكاس. وضمنوه فوائد أخرى منها أنه يمكن به تعيين الجهات ومعرفة الفصول.

أقول مرة أخرى إن الهرم وراءه علوم وفنون وإدارة وعقيدة. إنه رمز مصر وحضارتها بفنونها وعلومها ومعتقداتها فى البعث والخلود.. الخلود الذى يقف الهرم شاهدا عليه بشموخه الثابت وثباته الشامخ حين يتغير فى العالم كله: الزمان والمكان والناس.

يقول «ديورانت»: (الا ما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو روما بالقياس إلى السجل الحافل فى حياة مصر الذى يمتد من مينا إلى كليو بطره).

ويقول عن الدير البحرى للملكة حتشبسوت:

(ليس فى وسع من يشاهده أن يخالجه شك فى أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم عن هذا الشعب المبدع المبتكر. ولعلهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت. وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر،وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات وملكة ليست أقل ملكاته شأنا.

ويقول عن رمسيس الثانى (إنه شخصية من أروع الشخصيات فى التاريخ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنسانا لا قيمة له ولا خطر).

لقد وقف شاملبيون سنة ١٨٢٨ أمام الكرنك يقول فى دهشة لا تخفى (فيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها، وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه فى أكبر صورة وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة وهذه الفخامة).

ويقول ديورانت عن فن التحنيط المصرى (وقد برعوا فى هذا الفن براعة أبقت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية).

يحكم المؤرخون على حضارة من الحضارات بمكان المرأة فيها. وهنا يقول «ديورانت»

كان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم فى هذه الأيام. وفى ذلك يقول «ماكس ملر»: (ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادى النيل).

أقول المرأة المصرية قوية بالوداعة.. والوداعة فيها فرط حنان الذى يجعلها كإيزيس رمزا للفداء والوفاء كما هى رمز الإصرار وطاقة العمل.

ومن علامات الحضارة المصرية فنون الزينة عند المرأة المصرية فهى سيدة رقيقة تتحلى وتتعطر لا ركيكة تتوسل بالبدائيات.

يقول ديورانت:

(كان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه فى هذه الأيام).

وظهرت الأثواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التى لا يحصى عديدها.. وملاك القول إن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئا من أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا فى هذه الأيام.

لقد رفعت مصر المرأة إلى قمة لم تبلغها المرأة فى بلد من البلاد أو عصر من العصور حتى يومنا الحاضر وذلك حين جعلتها فى معبد سيتى (نقيبة الأطباء).

وأكبر تكريم قدمته مصر للمرأة:

* الدير البحرى فى الأقصر

* معبد نفرتارى فى ٠أبو سمبل)

كانت المرأة المصرية تملك وتتصرف يقول «ديورانت» (كان النساء يمتلكن ويورثن، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيد بأراضيها (لأبنائها)- نقلا عن بترى.

بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث. ويعزو ديورانت زواج الأخ من أخته أن الرجال كانوا يبغون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذى كان ينحدر من الأم إلى البنت، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة.

ويقف «ديورانت» طويلا عن أدب قدماء المصريين وآدابهم.. التى كان يعتنقونها قولا وعملا (فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة فى كتاباتهم. من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه:

أطعم الخبز لمن لا حقل له

لا تطمع فى ذراع من الأرض

ولا تعتد على حدود أرملة

واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك وخذ خبزك من بيدرك

وهى حكمة تقرع بابنا بشدة هذه الأيام الذى أصبح فيها الخبز سلاحا سياسيا.

أما الأدب فقد كان للمصريين كما يقول «ديورانت» دور كتب وخزنه عليها.. (وقد وصلت إلينا مكتبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق.م وتحوى برديات مطوية ومحفوظة فى جرار معنونة ومصفوفة على رفوف.

وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور قصة السندباد البحرى، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رينسن كروزو.

أقول «قصة (الملاح الغريق) الذى تأثر، بها الأوديسة حين جعلت بوليسيس يركب سفينة فى البحر، يثير «زيوس» فى وجهها العاصفة ويمضى التطابق حتى فى عبارات الملاح الغريق.

ولم تقتصر المحاكاة على يوليسيس فقد حاكى دانتى أيضا، الملاح المصرى فى قوله: (ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت).

إنها بعينها كلمة الملاح الغريق.

أترك المجال لـ «ول ديورانت» ليقول

أما القصص الكثيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصرى القديم. ومن هذه قصصص عجيبة بديعة الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التى تخلب الألباب والتى لا تقل فى سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التى يصدقها رجال الحكم فى هذه الأيام. ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات، والملوك والملكات. ومن

بينها أقدم مثال معروف لقصة «سندريلا» وقدمها الصغيرة الجميلة، وحذائها الجوال وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك.

وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم، وتهدف فى حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية، كأنما هى منقولة عن خرافات «إيزوب» و «لافنتين».

***

يقول «ديورانت» أيضا عن أدب قدماء المصريين (ولدينا من أغانى الحب الجميلة عدد كبير).

وأقول بهذه المناسبة أن أغانى الحب المصرية كانت مصقولة رقيقة من أثر التاريخ الطويل فى الحضارة.

إن نقاد الأدب الغربيين يدخلون أغانى الحب المصرية بما فيها من وصف الطبيعة طبيعة مصر وطبيعة النفس الإنسانية فى عداد الأدب العالمى حتى قيل إن عليها طابع (هين) خاصة فى وصفه لمرض الحب الذى جاء مطابقا تماما لوصف الشاعر المصرى القديم القائل:

(عندما أشاهد عينيك
حينئذ تتلاشى كل أحزانى وآلامى)
تقول الحبيبة فى الأغانى المصرية)
أنا أختك الأولى
وأنت لى كالروضة
التى زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها
وأجريت فيها غديرا
إذا ما هبت ريح الشمال باردة
وهى المكان الجميل الذى نتنزه فيه
حين تكون يدى فى يدك
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا

قارن هذا بقول الحبيبة فى نشيد الإنشاد:

(حبيبى رأسه ذهب إبريز، يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد بطنه عاج مغلف بالياقوت الأزرق ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز).

***

إن تراث مصر المكتوب يشمل كما يقول «ديورانت» رسائل رسمية. ووثائق قانونية، وقصصا تاريخية، وطلاسم سحرية، وترنيمات، وكتبا دينية مليئة بعبارات التقى والورع وأغانى الحب والحرب، وأقاصيص غرامية قصيرة، ونصائح تحض على حسن الخلق، ومقالات فلسفية).

أقول من تراث مصر، الخالد، تسابيح إخناتون مما أخذته عنه المزامير:

(١٠٤- ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ والمزمور ٥٤١).

أما حب قدماء المصريين للعلم تشهد به آثارهم وما وراءها من علوم الحساب والضبط والقياس والهندسة والفلك والجيولوجيا جاء فى إحدى البرديات (أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك، فلا شىء فى العالم يعدل العلم فى قيمته).

وتقول بردية أخرى: (ليس ثمة وظيفة إلا لها من يسيطر عليها، لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه).

ومن حكمة مصر قولها: (لا تضع وقتك فى التمنى، وإلا ساءت عاقبتك. اقرأ بفمك الكتاب الذى فى يدك، وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك).

يقول «ديورانت»: (ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات). ص ١٠٥.

وعن علم مصر بالرياضيات يقول «ديورانت»:

(إن أقدم رسالة فى الرياضة عرفت فى التاريخ هى بردية أحمس التى يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد، ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام. وهى تحسب سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى.

ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات، بل كانت تقيس أيضا أحجام الإسطوانات والكرات، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ٣,٠٦ وما أعظم فخرنا إذا استطعنا فى أربعة آلاف عام أن نتقدم فى حساب هذه النسبة التقريبية من ٣,١٦ إلى ٣,١٤١٦.

ويقول عن علمهم بالفلك:

(كانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثوابت، وذكروا فى فهارسهم نجوما من القدر الخامس (وهى لا تكاد ترى بالعين العادية.. وأنشأوا التقويم الذى أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان).

(كان معظم علماء مصر من الكهنة وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية).

ولشد ما تذكرنى هذه العبارة بهيردوت الذى تعلم فى مصر فلما أراد أن يتعلم أسرار العلوم المصرية منعه الكهنة من دخول الهيكل فاشتد حنقه وأطلق قولته (مصر هبة النيل) أى أن المسألة مسألة حظ.. ونسى أن بعض البلاد فيها نهران لا نهر واحد، وأن المسسبى أطول من النيل ولكن نهرا من الأنهار لم تقم على شاطئه حضارة كالتى قامت على شاطىء النيل فى مصر.. لقد تضافر الإنسان المصرى مع النيل فى خلق الحضارة الإنسان المصرى الذى اقتلع الأحراش وجفف المستنقعات ومهد الأرض للزراعة.. إن حضارة مصر تمثل كما يقول توينبى أكبر مؤرخى العصر الحديث، التحدى والاستجابة. إن مصر هبة النيل وهبة الإنسان المصرى لقد حابى الله، مصر، بالنيل ووهبها معه، الذكاء، أيضا.

ومن الغريب أن أكثرنا يردد مقولة هيرودوت على أنها مدح وهو لا يعرف خلفياتها.. أو قصتها.

يقول الكهنة أى العلماء المصريون (إن العلوم قد اخترعها من ١٨,٠٠٠ ثمانية عشر ألف عام قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى.

ويقول «ديورانت» (وهذا ما يؤكده لنا يمبلكس (حوالى ٣٠٠ ق. م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى ٣٠٠ ق.م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف «تحوت» ويقدر عدد ما وضع «تحوت» من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب. وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه «هرمس»).

ويقول «ديورانت» (أما أكبر مفخرة علمية للمصريين فهى علم الطب).

وأضيف إليه، هنا، قول «وارن داوسن».

(إن أسس علم الطب وضعت فى مصر منذ أكثر من خمسين قرنا بما لا يدع مجالا للشك).

وفى النهاية يقول «ديورانت» عن مصر بعد تحليل واسع:

(وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية وأنها فى أغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج، ونسيج الكتان، وأنها هى التى أحسنت صنع الملابس، والحلى، والأثاث والمساكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الإبتدائى والثانوى بل إنهم أول من أوجد نظام التعليم الفنى لإعداد الموظفين ورجال الإدارة.

وهم الذين ارتقوا بالكتابة. ونهضوا بالآداب والعلوم والطب. والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستورا واضحا للضمير الفردى، والضمير العام، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية، وبالاقتصار على زوجة واحدة وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين وأول من كتب الفلسفة.. وأول من نهض بفن العمارة والنحت وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (بما نعرف) أحد من قبلهم، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم.

إن مصر بفضل هذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا).

ألم أقل إنها مصر.

قصة الحضارة

موسوعة ألفها «ول ديورانت» عن رحلة الحضارة الإنسانية من أحد عشر مجلدا كبيرا. ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود والأستاذ محمد بدران ودكتور عبدالحميد يونس والدكتور محمد على أبودرة والأستاذ فؤاد اندراوس وتقع الترجمة العربية فى ٤٢ جزءا.

وقد راجع الأستاذ على أدهم بعض هذه الأجزاء.

وقد انفرد «ول ديورانت» بالتأليف حتى المجلد السادس ثم شاركته زوجته بدءا من المجلد السابع، الذى حمل اسميهما معا: ول ديورانت، أريل ديورانت.

وأنا أكتب عن هذا الكتاب تذكرت أول عهدى بهذه المجلة وهو عهد بدأ قبل أن تظهر. وقد إخترت أن يكون عنوانى الدائم (من عيون الكتب) لأنى كنت أعرف أنى تأثرت بكتب من الشرق والغرب.. من الثقافة العربية والأدب العربى. ومن الثقافات الأخرى شرقية وغربية فقد درست الفارسية والتركية بالجامعة ودرست إلى جانبهما الإنجليزية والفرنسية واللاتينية أيضا.. وقبل هذا، اللغة الأم.. العربية.

وكل لغة نافذة على عالم رحيب ورؤى بعيدة.. ولكنى فوجئت بالمجلة تضع على الكتب التى أقدمها بين دفتيها، عنوانا آخر (من عيون التراث) والعنوان يوحى بأن الكتب قاصرة على ما كتب فى العربية مما يشكل جانبا كبيرا من التراث الخاص بنا.

أقول يشكل جانبا كبيرا لأن روافدنا الثقافية تستهل أو يجب أن تبدأ بعطاء مصر القديمة التى إخترعت الكتابة والكتب وارتادت آفاقا يحسبها الكثيرون من وضع الآخرين وهى نبع مصر الفرعونية فهى موطن القصة القصيرة ومصر هى صاحبة أول بحث فلسفى وأول مسرحية فى آداب الدنيا هى مسرحية منف التى يحتفظ بها متحف لندن، والتى كتبت قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة (كتبت ٣٤٠٠ ق. م).

كما أن كتب أوريجانوس واثناسيوس من آباء مصر هى خير ما كتب فى المسيحية حتى ذاع فى أوربا، القول: «إذا سمعت قولا لأثناسيوس ولم تجد ورقا تكتبه عليه فاكتبه على قميصك فى الحال».

ومصر الإسلامية وضعت الموسوعات وابتدعت فن الخطط والأخائذ ونبغت فى فن السير وكانت «مدرسة» فى البلاغة، وإمارة فى الشعر، وإمامه فى النثر بألوانه من قصة ومسرحية وبحث وتحقيق.

والبحث فى ريادات مصر الفنية والأدبية على مسار تاريخها كله، موضوع لمجلدات، لامقال.

إن صاحب الكنز المعنوى لا يزهد فى الكنوز الأخرى فالحديث الشريف يقول «نهمان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال»..

والمال ليس نقودا فحسب، فالتراث بحكمته وروائعه وآدابه وعلومه وفنونه، ثراء عريض. ونحن كتابا وقراء، طلاب علم وطلاب حقيقة وطلاب مال من نوع آخر أى كنوز المعرفة وهى أغلى من أموال الأرض.

بعد هذه المقدمة أدعو القارىء إلى اعتبار عنوان المجلة (من عيون التراث) ينسحب على التراث الإنسانى قديمه وحديثه. وهنا أستطيع أن أقدم كتاب العدد (قصة الحضارة).

ألف هذا الكتاب، ول ديورانت فى أحد عشر مجلدا كما أشرت ينقسم كل منها إلى عدة أجزاء تكلم فى الجزء الأول من المجلد الأول عن نشأة الحضارة. وقد حاول فيه كما يقول أن يقص ما أدته العبقرية وما أداه دأب العاملين فى ازدياد تراث الإنسانية الثقافى وأن تكون قصته (مصحوبة بتأملات فى العلل ووصف الخصائص وماترتب من نتائج لما أصابه الإختراع من خطوات التقدم، ولأنواع النظم الإقتصادية، والتجارب فى ألوان الحكم، وما تعلقت به العقيدة الدينية من آمال، وما اعتور أخلاق الناس ومواضعاتهم من تغيرات، وما فى الآداب من روائع، وما أصابه العلم من رقى، وما أنتجته الفلسفة من حكمة، وما أبدعه الفن من آيات).

وهى كما نرى مهمة صعبة متشعبة ومجهدة، ورائدة، وأن يكون هذا بأجمعه فى كل لا يتجزأ، عطاء يحسب لصاحبه.

وقد إطمأن ديورانت إلى هذا المنهج بعد أن رأى الطريقة المعتادة فى كتابة التاريخ مجزءا أقساما منفصلا بعضها عن بعض، يتناول كل قسم ناحية واحدة من نواحى الحياة فتاريخ إقتصادى، وتاريخ سياسى، وتاريخ دينى، وتاريخ للفلسفة، وتاريخ للأدب، وتاريخ للعلوم، وتاريخ للموسيقى، و تاريخ للفن، يقول ديورانت:

(أحسست أن هذه الطريقة فيها إجحاف بما فى الحياة الإنسانية من وحدة، وأن التاريخ يجب أن يكتب على نحو تركيبى كما يكتب على نحو تحليلى).

وقد تحسب ديورانت ما قد يتعرض له منهجه من نقد فى عالم ينتهج التخصص حتى غدت نواحى الإختصاص تعد بالمئات يقول «فتاح حوتب» حكيمنا المصرى، منذ خمسة آلاف عام: (أنظر كيف يمكن أن تتعرض لمناوأة الخبراء فى المجلس، إنه لمن الحمق أن تتحدث فى كل ضروب المعرفة).

مرة أخرى أقول مهمة صعبة شاقة وشائقة.. مجهدة ورائدة.

ويرتفع ديورانت إلى قمة حين يجهر منصفا بكلمة الحق شأن العلماء الأجلاء، فيضع كلا، فى مكانه الصحيح وحجمه الطبيعى.

يقول ديورانت منصفا عن التراث الحديث للإنسانية (إن قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحا لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التى ظن «سير هنرى مين» خطأ أنها المصدر الوحيد الذى استقى منه العقل الحديث، فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الإقتصادى والسياسى ومما لدينا من علوم وآداب، ومالنا من فلسفة ودين، يرتد إلى مصر والشرق، وفى هذه اللحظة التاريخية- حيث تسرع السيادة الأوربية نحو الإنهيار، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة، وحيث الإتجاه كله فى القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب- وفى هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمى الذى ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التى تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها فى سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقا ذريعا فى تصوير الواقع ونقصا فاضحا فى ذكائنا. إن المستقبل يولى وجهه شطر المحيط الهادى، فلابد للعقل أن يتابع خطاه هناك).

ولكى يكتب «ول ديورانت» عن الشرق حمل نفسه على الرحلة إليه والدراسة ثمانية أعوام متصلة قال بعدها وقد استبانت الحقيقة له (إن العمر بأسره يخصص للبحث العلمى لن يكفى طالبا غريبا ليدمج نفسه فى روح الشرق الدقيقة اللمحات وفى تراثه الغامض).

كتاب (قصة الحضارة) ضرورى لكل إنسان يتمثل قول «فولتير» (أحب أن أعلم الخطوات التى سارها الإنسان فى طريقه من الهمجية إلى المدنية).

وعند «ديورانت» ترتبط الثقافة بالزراعة Culture- Agriculture كما ترتبط المدنية بالمدينة و «ديورانت» له نظرية فى «المدنيـة». فعنده أن الإنسـان لا يخلق «المدنية» ولكن الظروف الجـغرافـية والإقتصادية تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذى يصاغ عليه.

(فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحـد، وهو أنها تجىء عادة بعد مرحلة يتم فـيها التزاوج البطىء بين شتى العناصر، ذلك التـزاوج الذى ينتهى تدريجيا إلى تكوين شعب متجـانس نسبيا.. يضاف إلى هذا، العوامل النفـسية الدقيقة، ثم لابد للناس أن يشـعروا شيئا فشيـئا أنه لا حاجة بهم إلى توقع المـوت أو الضـريبـة عـند كل منعطف فـى طريق حـيـاتـهم)- إنه إحـسـاس الإنسـان بالضرائب- ثم يضيف «ديورانت» عاملين هما فى نظرى قاعدتان أساسيتان لا مجرد إضافة

١ - وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار

- الإيمـان بما هو كـائن وراد الطبيـعـة أو بما هو بمثـابة المثل الأعلى المنشـود لأن ذلك يرفع الأخـلاق من مرحلة توازن فـيهـا بين نفع العلم وضـرره إلى مـرحلة الإخلاص للعـمل ذاته وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت.

***

وأخيرا يأتى دور التراث الذى يجمع المعارف والأخلاق والتقاليد والعلوم والفنون ومعطيات الأمة على مسيرة جياتها لأن هذا التراث هو الذى ترتكس إليه فلا تسقط، وترتكز عليه فلا تقع أو تضيع.

وعند «ديورانت» أن المدنية ليست شيئا مجبولا فى نظرة الإنسان.

كـلا ولا هى شىء يستـعصى الفناء، وإنما هـى شىء لابد أن يكتسـبه كل جـيل من الأجيـال إكتسابا جديدا.

تكلم «ول ديورانت» فى الفصل الأول عن المرحلة أو الرحلة (من الصيد إلى الحرث).

وهو فصل يحـفل بالطرائف وقد استـهله بقوله: (إن نظام الوجبـات الثلاث فى كل يوم نظام إجتماعى غـاية فى الرقى، أما الأقوام الهمجيـة فهى إما أن تتخم نفسهـا دفعة واحدة أو تمسك عن الطعـام) والمثل من قبـيلة «البوشـمن» Buch-Men فى أفـريقيـا فالحيـاة عندها (إمـا وليمـة وإما مجاعة).

ومن الطريف قول ديورانت (إن في قصر النظر هذا لحكمة صامتة، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند «الهمج» ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم، وحلت به صفرة الغم، وها هنا يشتد فيه الجشع، تبدأ الملكية، ويزول عنه البشر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول الخلى من كل تفكير.

ومن الطرائف أو الحقائق فى الواقع، أن : (النحل الذى ملأ خليته بالعسل، والنمل الذى خزن زاده أكداسا إتقاء يوم مطير- هذه جميعا كانت أول منشىء للمدنية.

وللصيد عند «دل ديورانت» فلسفة (لم يكن الصيد والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الإقتصادى، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التى كتب لها أن تظل باقية فى أعلى صور المجتمع المتحضر لقد كانا ذات يوم مركز الحياة. وهما الآن بمثابة أساسيها الخبيئين، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة، فكأنما نؤدى اليوم صيدنا بوساطة غيرنا ننيبه عنا، إذ تعوزنا جرأة القلب التى نقتل بها طرائدنا علنا فى الفضاء المكشوف، لكن ذكريات الصيد القديم مانزال تعاودنا حينما نغتبط بمطاردتنا الضعيف أو الذى يلوذ منا بالفرار، بل إنها تعاودنا فى ألعاب أطفالنا- حتى الكلمة التى نطلقها اليوم على اللعب هى نفسها التى تدل على الصيد- لفظة Game الإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعب أيضا.

وإذن فآخر ما نصل إليه فى تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه.

وهنا يحضرنى قول الإمام الشافعى: لا تستشيروا من ليس فى بيته دقيق فإن عقله غائب- فى إشارة إلى شأن الرخاء المادى يكسب الرخاء النفسى والعقلى.

أعود إلى ديورانت الذى يقول، فإن رأيت فخامة الفن فى الكاتدرائية أو مبنى الكابتول، وإن شهدت متحفا للفن أو حفلة موسيقية، وإن صادفت مكتبة أو جامعة، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التى تخفى وراءها أشلاء القتال).

ومن الطرائف أو الحقائق أن المرأة أثناء مرحلة الصيد (كانت فى طريقها إلى أكبر كشف إقتصادى بين تلك الكشوف جميعا، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات).

والحافرة أى ذلك الشىء الذى يشبه العصا الذى كانت المرأة تنكت به الأرض هى (أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض).

وتعاونت النار والزراعة على تحرير الأنسان من إعتماده على الصيد.

يقول ديورانت أن الإنسان فى هذه الفترة كانت ألذ أطباقه وأشهاها زميله الإنسان ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوما شائعا بين الناس جميعا. فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريبا، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة، تاريخا مثل سكان إيرلنده وإيبريا وجماعة البكت، بل بين أهل الدنمارك فى القرن الحادى عشر.

أقول أى بعد بناء الأهرام بنيف وأربعة آلاف سنة!!

يقول «ديورانت»

(لئن بدأت: إنسانية الإنسان بالكلام، وبدأت المدنية بالزراعة، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان إختراعا، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة بإحتكاك أوراق الشجر أو غصونه، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة).

ويتحدث «ديورانت» عن أبسط الإختراعات فى حياة الإنسان، حديثا طليا. الحديث هنا عن : العصا.

(ألا ما أبسطها اختراعا لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزا للقوة والسلطان، من العصا السحرية عند عرائس الجن وعكاز الراعى إلى عصا موسى أو هارون، والعصا العاجية التى كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان، والقضيب الذى يلوح به المنبئون بالغيب، ثم الصولجان يمسك به القاضى أو الملك، ولقد إنقلبت العصا فى الزراعة فأسا، أما فى الحروب فقد أصبحت حربة أو سهما أو رمحا أو سيفا أو سنكيا)

«ولى فيها مآرب أخرى»

وتحدث «ديورانت» عن بدايات الخزف والنسيج ثم رحلة المدنية فى حمل الأثقال وإختراع العجلة ثم صنع الزوارق بتفريغ جذوع الأشجار وأصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل.

وفى رحلة الإنسان أدى تفاوت الكفايات البشرية والموارد إلى المقايضة وهكذا أصبح، التبادل هو أصل التجارة.

أما العملة فقد بدأت بالماشية.

وكانت الماشية معيارا مناسبا لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة، فهى تربح بالتربية وهى سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها، فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يُقوَّمون بالماشية.

واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان، فللأولى استعملوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة، بل إن الكلمة التى تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهى Capital ترتد فى تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها ملك وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التى تعنى «رأس» والمقصود رأس من الماشية. فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئا فشيئا محل سائر الأشياء فى استعمالها معيارا للقيمة.

***

وفى رحلة الإنسان نحو المدينة قوى الإحساس بالملكية إلى الحد الذى لازمت الأشياء المملوكة، مالكها، فغالبا ما دفنت معه فى قبره، وانطبق هذا على الزوجة نفسها.

وعرفت رحلة الإنسان شيوعية القوت ولكن حين نهض الإنسان إختفت الشيوعية البدائية (لأنها عقبة فى سبيل تنازع البقاء، وأنها لم تحفز الناس بما يكفى لتشجيعهم على الإختراع والنشاط والإقتصاد، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوى بين الكفايات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات).

وصحب تقدم الإنسان واصطراع القوى واندلاع الحروب، ظهور الرق حتى اعتبره أرسطو وكذلك القديس بولس شيئا طبيعيا.

ويقول «ديورانت».

(الحروب هى التى تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة، كما أن هؤلاء جميعا هم الذين يعودون فيخلقون الحروب).

ويقول «ديورانت» إن الإنسان بفطرته ليس ميالا إلى الحرب والدليل عنده أن بعض الشعوب المتأخرة غاية فى حب السلام (ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوربيون بعضهم بعضا كأنهم الحيتان- مع أنهم يدينون جميعا بعقيدة مسالمة واحدة-ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض.ولذا قالوا فى تمجيد أرضهم: (ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجا وجليدا!.. إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤد إلى سعادتنا ومنقذنا من إعتداء المعتدين).

***

والفصل الأول فى الباب الرابع، فصل طريف عن الزواج.

ومن أهم فصول الكتاب، الفصل الرابع عن الدين عند البدائيين.

أما الباب الخامس فيدور عن العناصر العقلية فى المدنية: الأدب والعلم والفن ويدور الفصل السادس عن بدايات المدنية قبل التاريخ.

ما هى مصادر الدين فى بدايات رحلة الإنسان؟

هذه المصادر تتمثل فى

الخوف- الدهشة- الأحلام- النفس- الروحانية.

كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار حتى لم يصدق الإنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية.. أثار دهشته الجنس والأحلام ثم الأثر الغريب الذى تحدثه أجرام السماء فى الأرض والإنسان.. فزع الإنسان من رؤية موتاه فى أحلامه حتى كان أحيانا يترك للميت الدار التى جاءه فيها الموت وينتقل هو إلى دار أخرى (وفى بعض البلدان كان الإنسان البدائى يخرج الجثة من الدار خلال ثقب فى الحائط، لا من بابها، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة، لكى تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبدا..) طريفة.

جاء فى كتاب من كتب «يوبا نشاد» فى الهند القديمة أن لكل شىء روحا وأن العالم الخارجى ليس مواتا ولا خلوا من الإحساس لكنه كائن حى دافق الحياة وهذه الروحانية فى النظر إلى الأشياء هى ما فى الدين من شعر، وما فى الشعر من دين.

***

وفى رأى الشعراء فى كل العصور- أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء، كلها أشياء مقدسة.. وكانت الغابات فى رأى الجرمان الأقدمين كانت فى أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمردة والأقزام وعرائس الجنة.. يقول «ديورانت» (إنك لتلمس هذه الكائنات الجنية مبثوثة فى موسيقى «فاجنر» وفى مسرحيات «إبسن» الشعرية.. ويستحيل أن يعترف بشاعر أو كاتب مسرحى على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات فى أدبه وإن فى هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالا، فمن الخير الذى يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملتك للأحياء).

كان الخوف أساس الطوطمة كما هو أساس كثير من العبادات.

عبدالإنسان قوى الطبيعة والأقوياء من البشر حتى بعد موتهم..

إنها حيرة الإنسان وخوفه معا..

***

كيف حلت مصر هذه المعادلة؟

موعدنا معا فى الجزء الثانى من المجلد الأول من هذه الموسوعة الحضارية.

إن مصر فى (قصة الحضارة) قصة وحدها.

الحضارة العربية فى أسبانيا

ألف هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال وترجمه إلى العربية الدكتور الطاهر أحمد مكى.

وفى المكتبة العربية عن الحضارة الاسلامية فى اسبانيا- بعامة والاندلس بخاصة، موسوعة مؤرخنا الكبير الأستاذ عبدالله عنان ولكن الدارس استاذا أو طالبا من واجبه أن يعرف جميع الآراء.

إن المؤلف له رأى متحفظ فيما يكتب المستشرقون ولكنه أيضا يقول فى وعى: (رأيى دائما أنهم يكتبون فى ضوء فهمهم وذوقهم وتكوينهم المزاجى، ولصالح بلادهم وثقافتهم أولا وأخيرا، وليس لنا أن نطلب منهم غير ذلك، والباحث الموضوعى الكامل لم يخلق، وبحسبنا منهم ألا يكذبوا، أو يزيفوا، وعلينا أن نقف على قولهم، وأن نفيد من منهجهم، وأن نضع يدنا على الوثائق والحقائق التى تحت أيديهم وهو أمر ليس متيسرا على الدوام، وأن نأخذ من آرائهم ما هو حق، دون أن يصدنا جهل أو غرور، وأن نرد عليهم ما هو باطل، دون أن يقعد بنا، تهاون، أو جبن، ولهذا حرصت كعادتى على أن أترجم النص كاملا، وفى أمانة، مهما يكن رأيى فى بعض ما يحمل من آراء).

أقول لسنا من هواة مقاطعة الفكر فديننا يقول (من تعلم لغة قوم أمن شرهم) واللغة هنا وعاء لما يكتب بها هذه نقطة.. أما النقطة الأخرى فهى أن بعض المستشرقين أنصفوا الإسلام والحضارة الإسلامية ولم يجاروا من أساء إليها من أقوامهم.

والمؤلف أعطى عمره وأنفق سنيه فى الاطلاع على المخطوطات والوثائق المتعلقة بالموضوع وتصنيفها ونشرها وعكف بصفة خاصة على كتابة تاريخ الأندلس كما يقول المؤلف فكان كتابه الرائع: تاريخ أسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة، وأسبانيا الإسلامية، النظم والحياة الإجتماعية.. وهما أفضل ما كتب فى هذا المجال وكلاهما مترجم إلى اللغة الأسبانية.

نقطة أخرى أضيفها وهى تخفى على الكثيرين ومن واجب الكتابة والكتاب أن يقفوا عندها طويلا وهى سماحة الإسلام فى أوج سلطانه، فى أسبانيا مع اليهود واعترافهم بتميزه فى هذا الإرتفاع.. وهذا سر كتابتهم عن الحضارة العربية فى أسبانيا.. وقد يكون سر الإطمئنان بعض الشىء، إلى هذه الكتابة فى اوساط مثقفينا.

لقد إعترف الحاخام الأكبر للإمبراطورية البريطانية فى كتابه الذى سماه (فى الفكر اليهودى) وقلما ينصفون أحدا بدليل أن هذا الإعتراف مشوب أيضا بنعرتهم التقليدية وانتحال فضل الحضارات الأخرى أو ادعاء الفضل فيها.

ولكن هذا كله لم يستطع معه، الحاخام، إنكار تسامح الإسلام مع اليهود فى قمة ازدهار دولته بأسبانيا.

يقول الحاخام د. ج. هـ هرتس فى فصل:

(إخراج اليهود من أسبانيا والبرتغال ١٤٩٢-١٤٩٧).

يرجع اضطهاد العنصر اليهودى إلى فجر العهد الذى تسلمت فيه المسيحية إدارة الشئون المدنية إذ ظلت كراهية اليهود لعدة قرون رمزا من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين.

لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية، فأشبعتهم شتما، وامتهانا واحتقارا وسلبا ونهبا، ولقد طردهم من انجلترا ادوارد الأول.. ومن فرنسا شارل السادس، فلم يجدوا ملجأ إلا الأندلس، حيث أحاطهم امراء الاسلام بعطف خاص ولكن فى ساعة نحس وشؤم إكتسح الصليب الهلال واحتل مكانه على قمة الحمراء، فهدم هذا الملاذ الوحيد وخفت مصباح التسامح الدينى فى أسبانيا إذ تقرر إخراج اليهود منها) ص ٢١٥- ٢١٦.

والكتاب يتكون من ثلاثة فصول كبيرة

الفصل الأول عن : الغرب الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية.

الفصل الثانى عن: المشرق الإسلامى والحضارة العربية الأسبانية

الفصل الثالث عن : أسبانيا المسيحية والحضارة العربية الأسبانية.

يلى هذا ملحق كبير عن المذهب المالكى فى الأندلس وإسهامات المذاهب الأخرى.. مع تواريخ هامة ذات صلة بالتاريخ السياسى.

تناول الفصل الأول بداية تكوين الدولة الإسلامية فى الأندلس على يد عبدالرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبدالملك وكيف حفل القرن التاسع الميلادى بالصراعات حتى استقر الأمر للأمويين فى أسبانيا فى بدايات القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى).. وتناول الفصل الثانى عطاء أسبانيا وعطاء الإسلام العلمى فقد قصدت الرحلة، أسبانيا، وقصدها من المشرق الفارسى «ابن خرداذبة» و «اليعقوبى» و «المقدسى» و «ابن حوقل» الذى أعطانا طائفة من المعلومات الدقيقة عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية فى أسبانيا الإسلامية وإن لم يكن رأيه فى سكان قرطبة مرضيا.

وإلى أسبانيا رحل «زرياب» وبلغ بها مكانة مرموقة حتى أنه كان يجوب شوارع قرطبة فى موكب فخم من الفرسان.

وحفل تاريخ الأسلام فى أسبانيا بهذه الأسماء

عباس بن فرناس الذى بشر بالطيران فى العصور الوسطى وفى علم القراءات «أبو عمرو الدالى» و «ابن وضاح» و «عياض السبتى» والمحدث «ابن سعادة» الذى كتب نسخة جيدة الضبط من كتاب صحيح البخارى، فى مرسيه سنة ٤٩٢ هـ.

ومن الفقهاء: أبو وليد الباجى ، وأبو الوليد بن رشد (جد ابن رشد الفيلسوف) وابن عاصم مؤلف كتاب (تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام) وقاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى

وفى فقه اللغة العربية «ابن سيده» صاحب معجم (المخصص فى اللغة) الذى يقع فى سبعة عشر جزءا.

وابن عبد ربه مؤلف (العقد الفريد) وهو موسوعة ضخمة تأثر فيها بكتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبه

وأبو على القالى مؤلف كتاب (الآمالى) وهو من عيون التراث وينشأ فى أسبانيا علماء وفلاسفة مسلمون على رأسهم ابن رشد وفلاسفة أسبان مثل سينيكا Séneca وتريسا دى أفله وهى راهبة أسبانية Tresa de Avila ولم يحل هذا دون أن يعترف ميجيل اسين بلاثيوس، كما يقول المؤلف بعد معاناة طويلة فى مؤلفات رؤساء تلك المذاهب والإتجاهات: (إن تاريخ الفكر الفلسفى فى أسبانيا الإسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية المشرقية دون أن تكون له بالتراث المحلى صلة حقيقية يقوم عليها الدليل).

وأبرز ما فى الفصل الثالث (أسبانيا المسيحية والحضارة العربية الأسبانية) رحلة اللغة العربية فى اللغة الأسبانية حيث يقول المؤلف إن الأسبانية وجدت نفسها طيلة مراحل نموها وحتى القرن التاسع الميلادى مضطرة إلى أن تأخذ من اللغة العربية كل ما كان ينقصها حينئذ لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة فى مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة .

ففى النظم العسكرية تطلق إلى اليوم كلمة الفارس العربية على رتبة الملازم Alferez.. ومقدمة الجيش: الطليعة Atalaya

وفى مصطلحات العمارة يطلق على البناء Albanil وعلى الطوب Adobe

وفى مؤسسات الدولة يطلق على الضرائب المصطلح العربى: القبالة Alcabala وعلى رئيس البلدية Alcalde وهى تحريف لفظة القاضى

وكان مسيحيو شمال أسبانيا يستخدمون الكلمات العربية فى المناصب المدنية مثل صاحب المدينة Azlmedina.. والمحتسب Almotacen.

أما اسماء الأمكنة وخاصة فى جنوب الجزيرة فيغلب عليها إلى اليوم، الأسماء العربية فالوادى الكبير Guadalquivir ومدينة سالم Medinaceli وقلعة أيوب Calatayud أو البسيطة Al bacete.

وفى الريف الأسبانى تسود فى الزراعة الأسماء العربية مثل الناعورة noria وهى لفظ إنتقلت إلى الفرنسية أيضا وكلمة «المضربة» Almadrabas فى الأسبانية و Madragues فى الفرنسية.

وفى الفاكهة والزهور، البرقوق Albaricoque فى الاسبانية و Abricot فى الفرنسية والياسمين Jazmin والقطن Algodon والزعفران Azafran والزيت Aceite

وأخذت الفرنسية عن طريق الأسبانية أسماء كثير من الألوان مثل أزرق Azar والأصهب alezam وقرمزى carmaisie.

وكثير من من أسماء الملابس والمجوهرات والأثاث والعمارة والفن وقد أانتقل تأثير الحضارة الإسلامية واللغة العربية من أسبانيا إلى ما حولها وخاصة إيطاليا وفرنسا.

أما الكتب العربية وتأثيرها فيقف على قمتها كتاب: (حيى بن يقظان) لإبن طفيل وكتاب (طوق الحمامه فى الألفه والآلاف) لابن حزم. وقد كتبت بتفصيل عن هذا الكتاب لمجلة (كل الناس) ونشر فى أعدادها السابقة.

وبعد فإن كتاب (الحضارة العربية فى أسبـانيا) يستحق الوقوف عنده طويلا فهو يجلو صفحة كدنا أن ننساها ومـا أحوجنا إليها فى عصر «التـغريب» إستردادا للثقة فى انطلاقـه لصعود المسرح من جديد.

إيمحتب

كتاب ألفه ج. هارى Jamieson B. Hurry ترجمة الاستاذ محمد العزب موسى وراجعه الدكتور محمود ماهر طه.

والكتاب من مشروع المائة كتاب فى سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية التى رعاها الدكتور أحمد قدرى.

المؤلف من عشاق الحضارة المصرية القديمة حتى ليقول إن (عددا متزايدا من المثقفين الذين تهزهم قصة مصر القديمة وهى تتكشف تدريجيا فإن أرض الفراعنة لها سحر لا يكاد يدانيه سحر أى بلد آخر، وهذا السحر يتزايد بإطراد كلما فهمنا على نحو أفضل ذلك التاريخ الإستثنائى لمصر، وليست هناك حضارة قديمة أخرى يمكن أن نفهمها ونعيد تركيبها بهذه الدرجة من التحقق واليقين).

ويقول عن إيمحتب إن الكتاب أو الدراسة فيه، مكرسه لذكرى طبيب ساحر وحكيم متميز يظهر لأول مرة على مسرح التاريخ المصرى فى حكم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة.

وأضيف إلى هذا القول أن ايمحتب كان طبيبا حكيما وساحراً وكان أيضاً أديباً ومثالا ومهندسا ووزيرا وفلكيا وكاهنا. كان أول شخصية موسوعية فى تاريخ بنى الإنسان.

وينكر المؤلف على الإغريق أن جعلوا «اسكليبوس» رمزا للطب فى حين أن ايمحتب هو الجدير بهذا الشرف والمكانة لعدة أسباب: أولا: لأنه أقدم من «اسكليبوس» بلا مراء

ثانيا: بفضل الخدمات التى أداها لبلاده كوزير للملك زوسر ومنها بناء هرم سقارة المدرج

ثالثا: لشهرته الطويلة كمبرىء من الأمراض وهى الشهرة التى خلدت به فى التاريخ.

ومن الطريف أن المؤلف المبهور بشخصية العظيم «أميحتب» درس لفرط إنبهاره العلوم الأثرية والكتابه الهيروغليفية واللغات القديمة وتفرغ لعدة سنوات لوضع هذا الكتاب الفريد.

ولكن الذى هز المترجم المصرى وهزنى هو أضطلاع جاميسون هارى بالدعوة إلى أن يكون ايمحتب وبحق، رمز الطب فى العالم لا اسلكيبوس الأغريقى

يقول المولف:

إن هذا الرجل يستحق أسمى اجلالنا.. يجب أن ينظر إليه الأطباء فى كل أنحاء العالم بإعتباره المنشىء العبقرى لفن الطب، إنه الإله الرمزى لعلم الشفاء. إن إسمه يجب أن ينقش على رأس قائمة قديسينا وصورته يجب أن تكون شارة لمهنتنا.

ويقول: (من الأفضل أن يكون على رأس مهنتنا رجل من لحم ودم، شخصية شهيرة متعددة الجوانب، بدلا من شخصية غامضة المنشأ تنتسب إلى عالم الأساطير، إننا لا نعرف شيئا عن اسكليبوس وأعماله فى حين أنه يتبقى من ايمحتب على الأقل تحفته المعمارية الجبارة المعروفة بالهرم المدرج بسقارة، كما يبقى شاهدا عليه كثير من التماثيل والتصاوير الجدارية تشهد بأنه قضى حياة حافلة أنفق بعضها فى الخدمة العامة، وبعضها الآخر فى علاج المرضى وتخفيف آلام الإنسانية).

يحكى هيرودوت أنه تلقى أى طبيب أجنبى تعليمه فى مصر كان بمثابة شهادة له حتى يقول هوميروس فى الأوديسة (فى مصر الرجال ماهرون فى الطب أكثر من أى جنس بشرى آخر).

ولد ايمحتب سنة ٣٠٠٠ ق. م فى «عنخ- تاوى» إحدى ضواحى منف. ومعنى إسمه إيمحتب: «الذى يأتى فى سلام»

وقبل اللأدريين جميعا كتبت مصر، أنشودة «عازف القيثار» التى تناولت قصر الحياة والمجهول الذى لا يدريه أحد ومن هذه الأنشودة:

إرتد الكتان الرقيق. ضمخ رأسك بطيب الراتنج

واسعد بالمتع الحقيقية التى منحها الله

وكلمة «الحقيقية» والتى منحها الله، تعنى الكثير.. تعنى المتع ذات القيمة الرفيعة.. المتع التى تتمثل فى التعطر وارتداء الكتان الرقيق

ويقول «القصيدة التى نفذت إلى حقيقة الموت.. إنه لا يستثنى أحدا مهما كان عظيما وهنا ضربت مثلا «إيمحتب» إذن يحيا الإنسان حياته قبل أن يدركه الموت.

لا تحير نفسك

إلى أن يأتى يوم العويل عليك
ولكن ذا «القلب الهادىء» لن يسمع عويلهم
ولن يعيد البكاء أحدا من القبر
إقض يومك فى سعادة
وأبعد القلق عن قلبك
أنظر.. إن أحدا لا يأخذ أمواله معه
ولا أحد يعود من حيث رحل
إن أحدا لا يأخذ أمواله معه

هنا يدعو إلى الكرم والمشاركة وإكتساب الجميل. كما يدعو إلى التعفف عن التكثر بالمال الحرام.

***

كنا ونحن صغار أغرار فى مدرسة القرية نجلس فى أدراج بكل منها ثقب دائرى يتسع لمحبرة صغيرة ونكتب بالريشة.

وقد علمونا فى القرية أن نغمس الريشة فى حبر المحبرة ثم نرفعها ونهزها أو ننفضها لينزل منها قطرتان من الحبر. وبعد أن لقنا هذا تلقينا، أصبحنا نفعله كقاعدة أو كعادة من تلقاء أنفسنا.

ولم نكن فى طراءة السن نعرف السبب ولكننا نهز الريشة مرتين كلما غمسناها فى المحبرة.

وسارت الأيام وقرأنا تاريخنا لأنفسنا ولا أقول لقناه فى المدرسة فالذى تعلمناه فى المدرسة، تاريخ الملوك والحكام.

أقول عندما قرأنا لأنفسنا تاريخنا فى إنتماء إليه، عرفنا سر هذه القصة التى كان العالم «شيفر» أول من أشار اليها.

إن تماثيل «ايمحتب» يحمل فيها على حجر لفافه من ورق البردى وعبارة تقول (فليسكب كل كاتب قطرات من قارورته تكريما لروحك ياايمحتب).

من حقك علينا وعلى الدنيا، التكريم ياأعظم الكتاب.

هذا «إيمحتب» الأديب

أما «إيمحتب» الطبيب فقد أقيمت معابد عديدة تكريما له المعبد الرئيسى منها فى منف.

وهناك كما يقول المؤلف معبد آخر لإيمحتب يسمى أيضا «الإسكلبيون» كان مقاما فى جزيرة فيله ولا يزال جزء كبير منه موجودا إلى اليوم بما فى ذلك بعض القاعات التى ظلت لقرون كثيرة تستخدم فى الأغراض العلاجية والنوم الشفائى.

وكم زار «فيله» من ملوك وفاتحين وكهنة وسياح وكم زار «فيله» أيضا من مرضى بعضهم محمول على نقالات أو يتنقل بعكازات، وأمهات يحملن أطفالهن المرضى، جميعا يقصدون بكل شوق وأمل «إيمحتب» المحبوب. الطبيب الذائع الصيت.

وقد وقف المؤلف عند المعابد التى حفلت بصور إيمحتب والنقوش عنه مثل معبد الكرنك والدير البحرى ومعبد «تحوت» بمدينة هابو ومعبد «تحوت» أما معبد فيله ففيه خمس صور للعظيم «إيمحتب».

كما توجد صورة لإيمحتب على الجانب الداخلى للسور المحيط بمعبد أدفو.. وثلاث صور بمعبد دابور بالنوبة كما ظهر فى منظرين بمعبد الدكه ومروى ومعبد كلابشه.

إنه إيمحتب الطبيب إبن مصر التى أعطت لعلم الطب غير برديه «أدوين سميث» المشهورة، بردية ايبرس EB ers التى تسجل معرفتها بالهيكل العظمى وطريقة علاج الكسور على نحو سليم ومعرفة الحقائق العلمية عن المعدة والأمعاء وشرايين الدم والقلب.

كما تدل بردية «أدوين سميث» على معرفة الأطباء المصريين بتشريح الجسم البشرى وتصنيف معلوماتهم وتأسيسها على الحقائق التى شاهدوها أو بمعنى آخر كما يقول المؤلف كانوا يؤسسون معرفتهم على التجربة.

وتختص بردية «وستكار Westcar» بالولادة كما تختص بردية كاهون Kahun» بالطب البيطرى.

يقول المؤلف:

كانوا يعرفون على الأقل ١٥ مرضا مستقلا من أمراض البطن، و ١١ من أمراض المثانة، و١٠ من أمراض المستقيم والشرج، و ٢٥ من أمراض العيون و ٦ من أمراض الاذن، و ١٨ من أمراض

الجلد.. فهذه الأمراض كانوا يشخصونها تشخيصا سليما ويعالجونها طبقا لمبادىء محددة، ومن الممكن طبقا للظواهر التى تصفها البردية تمييز ٢٥٠ مرضا مختلفا.

ومن الواضح أن الأطباء الذين كانوا يزاولون مهنتهم على ضفاف النيل كانوا يملكون قدرا من الروح العلمية، وقادرين على الملاحظة الأكلينيكية الدقيقة، وعلى التنسيق بين الظواهر وتفسيرها، إذ أن تصنيف الأمراض يتطلب تقدما علميا كبيرا.

وينقل المؤلف عن هيرودوت إشارته إلى ظاهرة التخصص فى الطب فى مصر كسمة إذ يقول:

وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع التالية:

لكل مرض طبيب متخصص فيه لا لأكثر، وبلادهم كلها غاصة بالأطباء، بعضهم متخصص فى العيون، وبعضهم فى الرأس، وبعضهم فى الأسنان، وبعضهم فى الأمعاء، وبعضهم فى الأمراض الخفية.

كما كانت الأدوية مصنفة فى مجموعات خاصة منها المهدئات والمنبهات، والمنومات، ومضادات التشنج، والممدات، والقابضات، وأدوية التجميل، وطوارد البلغم، والمقويات، والمقيئات، وطوارد الريح من الأمعاء، والمطهرات، والمسهلات، وموانع النزيف، وطوارد الدود، ومدرات البول، وأدوية الحوامل، ومدرات الطمث، ومعجلات الولادة، ومدرات لبن الأم، ومرطبات البشرة (كريم) ومبيدات الجراثيم، ومضادات السموم، وما إلى ذلك.

كانت مصر تحرص على النظافة إلى حد المبالغة وكان الكهنة وهم فى موضع القدوة من الشعب يطبقون نظاما صارما فلا يمكن السماح لأى شىء غير ظاهر بدخول المعبد، ولاسيما «قدس الأقداس» وكانت الطهارة الجسدية والخلقية شرطا أساسيا لصحة العبادة.

كان يتحتم على الكاهن حلق شعر جسده كل ثلاثة أيام وعليه أن يستحم بالماء البادر من الرأس إلى القدم مرتين فى النهار ومرتين فى الليل. كما يتحتم غسل الأيدى وتنظيف الأظافر قبل أداء المراسم الدينية. ولهذا كانت المعابد تضم بحيرة الإغتسال وحجرة للعطور.

وكان المصريون القدماء يعرفون أهمية الطب الوقائى. يقول «ديودور الصقلى»:

كانت حياتهم كلها منظمة على نحو يوحى بأنها تسير طبقا لقواعد صحية وضعها طبيب واسع المعرفة لا مجرد مشروع قوانين.

يقول المؤلف:

إن أسم «إيمحتب» يستحق أن يظل خالدا فى ذاكرة البشرية كواحد من كبار العباقرة الإنسانيين.

إنه يتلألأ كأحد النجوم الثوابت فى سماء مصر الصافية.

الذى قال هذا إنجليزى منصف ماذا نقول نحن الذين شرفنا، بعده بالإنتساب إلى مصر أم النيل وأم الهرم وأم الحضارات وأم ايمحتب..

قصة الحضارة

مؤلف هذا الكتاب عالم نفسانى معروف من علماء هذا الجيل، هو أ. م. چود

وعربه الأستاذ محمد بدران

وموضوعه قصة الحضارة القائمة فى هذه الأيام وقد أبرز الكاتب أهم معالمها وشرح عيوبها وفضائلها شرحا نزيها، فلم يتحيز لها ولم يظلمها.. وبين ما تتعرض له من الأخطار.. ودلنا على الطريقة التى نتقيها بها. وقد أغفل فى هذه القصة ما ليس من مقومات الحضارة كتاريخ الملوك والقواد والفتوح والحروب.

ودار حوار كالسرار بينه وبين ابنته. تقول الإبنة:

- ولكن الملوك والأمراء كانت لهم أشياء عظيمة كالقصور الفخمة والملابس الجميلة، والجواهر النفيسة، والطنافس الغالية والمأكولات الشهية والعطور والخدم والعبيد.

ألم يكن هؤلاء متحضرين؟

تسأل الصغيرة كما يسأل البسطاء الذين يبهرهم البريق وإن كان ليس كل ما يلمع ذهبا.

أقول أن يفعل إنسان ما يريد ويتمتع بما يشتهى ليست بطولة لأن البطل الحقيقى هو «الكرسى».. هو ذهب المعز وسيفه وعلى رأى المؤلف هذا ما كان يفعله الرومان.. فقد كانوا يملأون بطونهم من الطعام والشراب. حتى إذا لم تعد تتسع لأكثر مما فيها تناولوا مقيئا يساعدهم على أن يفرغوا ما فيها، ثم يبدأون الأكل والشراب من جديد؟!

ولست أظن أن هذا من الحضارة فى شىء فهل تظنينه كذلك أنت؟

إن الخنازير تفعل ما كان يفعله هؤلاء الرومان وإن لم يكن فى مقدورها أن تتقيأ بعد أن تمتلىء بطونها بالطعام.

وتسأل الإبنة مرة أخرى:

- وكيف أميز الأشياء الجميلة من غيرها؟ فيقول والدها:

- إنها هى الأشياء التى لا تسأمين منها.. إن الأشياء الجميلة تبقى على الزمن، أى أن الناس يحبونها فى جميع العصور.

ويعترف المؤلف أو بوجه التحديد، على بواعثها.

إن الحضارة تقوم لأن الناس يفكرون تفكيرا جديدا، وهم لا يفكرون تفكيرا جديدا إلا إذا فكروا تفكيرا حرا.

وتتوقف الإبنة عند شرط التفكير الحر وقفه فيها حرية وحيرة حرية فى المناقشة وحيرة من قلة من يفكرون تفكيرا حرا، إذا كان للتفكير الحر هذا الشأن العظيم.. ولكن حيرتها لا تطول فقد جاءها الجواب.

- ذلك لأنه لابد من وجود أشياء كثيرة قبل أن تتهيأ للناس أسباب التفكير الحر. لابد من وجود الأمن مثلا أقول لأن الأعمال العظيمة:

تولد فى الرخاء النفسى حتى وإن قال المال والذى يعطى الرخاء النفسى والسلام النفسى، الطمأنينة إلى عدل يسود، وحب يجود وإيمان راسخ فى الأعماق يقويها ويزكيها وقد أفلح من زكاها.

يقول المؤلف لابد للتفكير الحر أن يكون الانسان المفكر عنده وقت يفكر فيه.. إذا تقاسمته وتوزعته الهموم والمشاغل والأشياء الصغيرة فقد مال الميزان. ويضيف المؤلف شرطا آخر هو أن يكون من حول المفكر قوم يتحدث إليهم.. أى أن:

الأمن.. والفراغ.. والمجتمع لا غنى عنها للتفكير الحر ولا غنى عنها كذلك لقيام الحضارة.

وأن يكون الإنسان خيرا حتى لا تتحول الاختراعات التى قصد بها فى البداية، الخيره إلى وسائل تدمير.

وبعد هذا أن يكون الإنسان خيراً حتى لا تتحول الاختراعات التى قصد بها فى البداية، الخير، إلى وسائل تدمير كما حدث فى تحويل الذرة من النفع إلى الدمار.

وقد قارن المؤلف بين الحضارات.. ورفض الفن السائد أن أعظم الدول شأنا هى التى هزمت أكثر عدد من الدول الأخرى فى ميدان القتال- وغلبتها على أمرها، وأخضعتها لسلطانها.. فإن

هذه الدول الغالبة ليست أكثر الدول حضارة.. إن الوحوش تتقاتل وكذلك يتقاتل المتوحشون.. ومن أجل ذلك كان أقدر الناس على القتال أشبههم بالوحوش أو بالمتوحشين وأبعدهم عن الحضارة.

وعلى ضوء هذا المقياس أغفل فى قصة الحضارة ذكر قيصر ونابليون والاسكندر، لأن هؤلاء لم يكونوا إلا رجالا نجحوا أكثر من غيرهم فى قتل عدد كبير من بنى الإنسان.

وأثنى المؤلف على حضارتين هما حضارة الهند وحضارة الصين لأن الهنود والصينيين جاءوا إلى العالم بآراء جديدة دينية وأنهم حاولوا أن ينهجوا فى حياتهم سبيل الخير والصلاح.. ولو أنه فى حديث الحضارات خلط بين الحضارات ومع هذا فإن وقفته عند الإسلام تستحق التسجيل.. إذ يقول:

إن الإسلام أحد أديان العالم الكبرى.. والإسلام الآن منتشر فى أجزاء واسعة من بلاد آسيا وأفريقية، ويدين به عدد كبير من الناس فى أوربا ولا تخلو منه أمريكا.

ولكن الناس لم يكن من السهل عليهم أن يتبعوا تعاليم المسيح الذى يقول إن الإنسان يجب أن يحسن حتى إلى أعدائه وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم، التى تحض على الأخلاق الكريمة ويقول إن الناس متساوون أمام الله.

على أنه يأمل أن يحاول الناس.

وبعد الإسلام أعرض بعض ما كتبه عن مصر: يقول «جود»

المصريون الأولون أقدم الأمم المعروفة فى التاريخ إننا نعرف الكثير عن المصريين القدماء والسبب فى ذلك أنهم تركوا لنا كثيرا من الأشياء الجميلة التى صنعوها والمبانى التى شيدوها والأوراق التى كتبوها ولم يكتفوا بهذا بل إنهم تركوا لنا جثثهم بعد أن حفظوها من الفناء بإضافة مواد تمنعها من التعفن، ولذلك نعرف عن المصريين الأقدمين أكثر مما نعرف عن أية أمة أخرى قديمة.. وفى كل عام يكشف الباحثون عن أشياء جديدة مما تركوه.. وكانت للمصريين حضارة عظيمة من بعض الوجوه- لم يقل شيئا عن البعض الآخر من وجهة نظره-

وعن الكتابة يقول (يعتقد بعض العلماء أن المصريين هم الذين اخترعوا الكتابة وأن الكتابة انتشرت من مصر إلى البلاد الأخرى حتى وصلت إلى بلاد اليونان.

وصنع المصريون، الورق من نبات البردى ولاتزال تلك الكتابة باقية إلى اليوم.

ويقول: (قد أخذ اليونان عن المصريين كثيرا من علومهم وقوانينهم ومن بلاد اليونان انتقلت إلى روما ومنها إلى سائر أنحاء العالم).

ويقول: غزا الرومان بلاد اليونان وغزا البرابرة بلاد الرومان ونشأت من سلالتهم تلك الشعوب الأوربية والأمريكية التى ساهمت فى الحضارة بنصيب كبير.

وعنده أن الرومان ليس لهم حضارة وانما هم امتداد للحضارة اليونانية على الرغم من أنهم غزوها ولكنهم كانوا جهلاء فعلم اليونان سادتهم، الكثير. ومع هذا لم يستفيدوا إلا قليلا

يقول «جود» (إن الرومان وإن أخذ واكثيرا من الأفكار اليونانية إلا أنهم لم يفلحوا إلا فى إفساد معظم ما فيها من خير)

وعن مصر يقول جود إنها كتبت ورسمت وصورت وآثارها منتشرة فى متاحف أوربا وأمريكا فضلا عن الكثير الذى يوجد منها فى موطنها الأصلى. وقد بلغت هذه التحف من الكثرة حدا جعل كثيرا من الدول الأوربية والأمريكية تخصص أقساما من متاحفها تحفظ فيها تلك الآثار المصرية الجميلة وهى تعتز بها وتعدها أثمن ما ملكت.

وتكلم «جود» عن براعة الايطاليين فى التصوير وعن الهولنديين فى هذا المجال شهد بهذه البراعة ميكل انجلو ورفائيل وليوناردو دافنشى فى ايطاليا.

كما يشهد بها فان ديك ورمبرانت وفرمير فى هولندا.

كما تكلم «جود» عن الموسيقى الألمانية ويرى أن أعظم موسيقى العالم هم الألمان..

والألمان بدورهم يعدون «باخ» (١٦٨٥-١٧٥٠) وموزار (١٧٥٦-١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧) من أعظم رجال العالم.

كما أنصف «جود» العرب الذين كان لهم فضل كبير على الحضارة القائمة فى هذه الأيام

ويرى نهضتهم فى القرن السابع عجيبة من عدة وجوه وكان لها تأثير عظيم فى معظم بلاد آسيا وأفريقيا وفى جزء غير قليل من بلاد أوربا.

وكان ذلك على أثر ظهور الدين الإسلامى وانتشاره فى أجزاء العالم.

لقد قضى هذا الدين على الحروب التى كانت تقوم بين القبائل المتعادية فى بلاد العرب وألف منها كلها دولة واحدة قوية، نشرت دينها وآدابها فى أنحاء العالم.

إن العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والرومان إلى العالم فقد ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم، وأضافوا إليها كثيرا مما وضعوه هم أنفسهم ونقل الأوربيون عنهم هذه العلوم وأهمها كلها علم الجبر الذى اخترعه العرب أنفسهم، وعلم الكيمياء الذى زادوا عليه كثيرا، وعلم الطب الذى تقدم على أيديهم تقدما عظيما وابن سيناء من أشهر هؤلاء الأطباء ونبغ العرب فى الفنون الجميلة والتصوير. ويلاحظ أن الصور التى تركها العرب تتألف كلها من أشكال هندسية مختلفة وأنها خالية من صور الإنسان.. وكذلك لم يصنع العرب تماثيل ولكن ما تركوه من الصور جميل حقا.. ولا نزال نشاهده فى المساجد التى أقاموها فى العصور المختلفة.

وهى كلمة إنصاف نسجلها له.

والحقيقة أنه فى كتابه وقف عند أصحاب العطاء من الأمم المختلفة وهذه سمة العلماء.

والفصل الرابع من هذا الكتاب يقف عند الطريقة التى غيرت بها الكشوف العلمية أساليب الحياة.

يكفى أن نعرف أنه قبل تقدم الطب كان الطفل من أربعمائة عام يموت فى سن الطفولة وكان يحدث فى لندن من مائة عام على الأكثر أن يموت ثلاثة أطفال من كل خمسة قبل أن يصل إلى سن الخامسة.. وأن يموت كل أطفال الفقراء الذين كانوا يربون فى الملاجىء إلا القليل منهم.. بل إن كثيرين من أبناء الأسر المالكة وهم الذين يظن الناس أنهم يعنى بهم أشد العناية، كانوا يموتون عادة وهم أطفال.

وإلى نعمة العلم يعود الفضل فى تمتع إنسان اليوم بالصحة فقد أثبت «باستير أن كثيرا من الأمراض تنشأ من كائنات حية صغيرة جدا تدعى الجراثيم تسكن الأجسام الحية وتعيش عليهاوتسممها..

ولهذا كان كشف الجراثيم وعملها من أهم الكشوف العلمية فقد عرف منه الأطباء أن من أحسن الوسائل لعلاج مرض ما أن نعرف طبيعة الجراثيم التى سببت هذا المرض وأن تقتل هذه الجراثيم.

ولقد كانت عناية الأطباء بنظافة كل شيء تمسه أيديهم من أهم أسباب إطالة عمر الإنسان فى المائتى سنة الأخيرة

إن المجارى التى تتخلص بها البيوت من الأقذار على اختلاف أنواعها أمر جديد فى الحضارة البشرية.

لقد كانت مدن العصور الوسطى كريهة الرائحة لأنها لم تكن فيها وسائل لنقل مخلفات المنازل.

وقد كشف العلم شيئا لا يقل أثره عن آثار كشف الجراثيم لأنه خفف من آلام المرضى وذلك هو كشف التخدير.. البنج

والمؤلف يرى أنه لا يوجد بين الكشوف العلمية كلها كشف كان له بمفرده أثر فى سعادة الناس مثل ما كان لهذا الكشف ذلك لأنه قلل من آلامهم وأزال خوفهم من الألم.

كان الجراحون يستخدمون كل ما يستطيعون استخدامه لتخفيف آلام المريض فكانوا يسكرون الجنود بالخمور،وكان المرضى يضربون على رءوسهم ليفقدوا شعورهم، ولكن العمليات المعقدة التى يجريها الأطباء فى هذه الأيام والتى تستلزم تقطيع أجزاء من جسم الإنسان ووصلتها بعدئذ، كانت مستحيلة ولذلك كان يموت عدد كبير ممن تنقذ حياتهم فى هذه الأيام بعمليات جراحية تجرى لهم فى الوقت المناسب..

المبهورون بأوربا وأمريكا اليوم هل يصدقون مؤلف كتاب قصة الحضارة حين يعرض فى ثنايا القصة، وهو أوربى، ما كان يجرى فى البلاد الأوروبية التى تسمى دول الحضارات القديمة، «العالم الثالث» فى غرور محدث الحضارة.. هل نصدق أن النساء الأوربيات كن فى القرن الثامن عشر أى منذ قرنين فقط، يعلقن فى وسطهن على الجنبين سلة كبيرة تمنعهن من الجلوس! وكانت النساء الإنجليزيات فى أواخر القرن الخامس عشر- أى فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية- يلبسن حول رقابهن طوقا سميكا من النسيج المتنفخ يمنعهن من أن يشربن الحساء! وكان النساء فى فرنسا فى أيام لويس الرابع عشر يتبعن عادة تشويه الأقدام؟!

وكانت النساء الأوربيات فى القرن الثامن عشر يلبسن ملابس من الجلد والصوف الملبد يتعذر عليهم خلعها ولا يستطعن غسلها فتظل على أجسامهن حتى تبلى وتتمزق!!

يقول المؤلف: (كانت النساء الأوربيات جميعا حتى الطبقات الراقية قذرات كريهات الرائحة وكن بسبب هذه القذارة يمتن بكثرة فى سن مبكره).

ليتنا نعرف تاريخنا لنقارن هذا بغندرة المرأة المصرية منذ آلاف السنين والمرأة فى الحضارة الاسلامية فى ظل التطهر والطيب وكتاب خالد يحترم الإنسان: عقله وروحه وجسمه.. الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ليتنا نسترد ثقتنا بأنفسنا.

ودخلت أوروبا فى عصر الآلات التى استخدمت فى صنع حاجيات الإنسان. اخترع جورج استيفنسن القطار وكشف عالم انجليزى شهير يدعى فراداى Faraday (١٧٩١-١٨٦٧) الطريقة التى يمكن بها، إطلاق الكهرباء المخزونة فى المادة وصنع فردای شرارة كهربائية قدر لها بعد وقت طويل أن تضىء العالم وتبع هذا صنع البطاريات ثم صنعت بعد قليل المحولات الكهربائية.

وفى سنة ١٩٤٥ استطاع العلماء أن يحطموا الذرة وكان من أثر المخترعات المختلفة: القطارات والسيارات والسفن البخارية والطائرات أن أصبح العالم مكانا واحدا وأصبح فى مقدور الناس أن ينتقلوا بسرعة عظيمة حول الأرض حتى لا يكاد يوجد على سطحها الآن مكان غير معروف.

على أن هناك شيئا أهم من هذه الكشوف نفسها، وهو أن الناس فى أنحاء العالم قد أخذوا يتعارفون ويتفاهمون ويتقابلون وينشأ بينهم ما نسميه علاقات اجتماعية واقتصادية وازدهرت الصناعة والتجارة مما أوجب بل فرض عقد الصلات قبل الصفقات ونشأت الحاجة إلى الكتابة والمراسلة وعظمت هذه الحاجة فنشأ اتحاد البريد الدولى.

عجيب أمر الحضارة.. لقد جلبت على أهلها انقضاض النهج من التلال على شعوبها فى المدن والسهول.. وهو ما يسميه الدكتور جمال حمدان الغزوات الرعوية وفى القرن الثالث عشر

أغار المغول القادمون من أواسط آسيا على بلاد الإسلام وعلى الجزء الأكبر من بلاد أوربا.

ودمرت فى الغارات، حضارات ودخلت الحضارة فى عصر الطباعة ولكن أهم من استخدام الحروف فى الطباعة صنع الورق وهنا تتألق مصر الرائدة فقد صنعت الورق وكتبت على البردى واسم الورق مشتق من البردى Paper فى الانجليزية و Papier فى الفرنسية ولما كثر الورق أصبح فى وسع الانسان أن يطبع ما يريد وحلت الكتب محل المخطوطات التى كانت تكتب باليد فى العصور الوسطى وتستأديه جهودا شاقة.

والكتب أهم أداة فى نقل الحضارة وحيث لا توجد الكتب لا توجد السجلات ولا توجد الآداب، ولا يستطيع الجيل الحاضر أن يورث الجيل القادم علومه وآدابه.

وإذا كانت نسبة (الأميه) متفاوتة فى البلاد المختلفة فالمؤلف يقول إن معظم أهل انجلترا من ستين سنة لا يعرفون القراءة ولم يسن قانون يلزم الأطفال بتعلم القراءة إلا فى عام ١٨٨٠.

وحين اخترعت الإذاعة اللاسلكية، استطاع بفضلها الناس على اختلاف ظروفهم أن يستمعوا إلى جميع ما يحدث فى العالم من حوادث هامة وأن يكونوا على اتصال بما فى العالم من معارف وآراء.

والعلم سواء كان جاهزا أو بالتعلم والتحصيل، قوة ألوان التفكير والتعبير فلا يتجمد عند تفكير واحد أو عقل واحد.

وكم بين التسامح والتعنت من فروق

والحضارة تقترن بالأمن والنظام وهما شرطان أساسيان فى قيام الحضارة. فبغير الأمن يتعذر وجود هذا النشاط الراقى الذى تقوم عليه الحضارة وبغيره لا يستطيع المخترع أن يخترع ولا يستطيع العالم أن يكشف ولا يستطيع الفنان أن يبدع.

والحضارة تحتاج الصحة ومع هذا لا نستطيع أن نقول ان الصحة هى الحضارة فكثير من المتوحشين أصحاء الأجسام ولكن الإنسان إذا لم يكن صحيح الجسم لم يستطع ان يعمل عملا نافعا أو يتمتع بطيبات الحياة خاصة بعد أن صار العالم وحدة..

إن من يتأمل يوما من حياته، يعرف أن طعامه يأتيه من جميع أنحاء العالم فالأشياء التى ابتاعها من بدال أو فاكهى تأتى من أطراف الأرض فمنهاتفاح أمريكا وبن البرازيل وشاى الهند والصين.

ومن الطريف قول المؤلف إنه لم يكن فى وسع ملك من الملوك الأقدمين أن يبتاع بماله الكثير ما تشتريه سيدة متوسطة الثروة فى هذه الأيام من حانوت البدال.

لقد كانت أمم الأرض إلى عهد قريب تعيش فى صناديق مقفلة لا يتصل بعضها ببعض إلا اذا أغارت إحداها على الأخرى.. وقد ظلت هذه الصناديق زمنا طويلا مقفلة لم تفتح قط ولكن الأمم فى هذه الأيام دائبة على الخروج منها والدخول فيها.. وقد بلغ من كثرة هذا الدخول والخروج أن أخذ بعض جوانبها يتحطم وأخذ العالم يبدو وكأنه صندوق واحد ضخم.

وعلى الرغم من أن العالم أصبح، وحدة فإن الحواجز لاتزال تفصل الأمم بعضها عن بعض وهى حواجز أقامتها الحكومات.. والحروب،.. ففى نصف قرن قامت فى أوربا حربان عالميتان وكانت أسبابها كثيرة مختلفة ولكن أهمها كلها الخوف والكبرياء.

واليوم أوربا أشبه بمعسكر واحد ضخم أو مستودع بارود على الرغم من العلم والتكنولوجيا والآلات المختلفة والصناعة والتجارة والترف.

وهنا ندرك قيمة الدين بإنسانياته

وإذا ظلت الأمم سائرة فى هذا الطريق فلن يحتاج الأمر إلى أكثر من شرارة أخرى لإيقاد نار الحرب من جديد وستكون هذه بفضل المخترعات العلمية الحديثة حربا مخربة تحترق بها حضارتنا ولا يبقى لها وجود.

زار ملك الأفغان، انجلترا وأعدوا له برنامجا للزيارة وكان أهم ما فيه زيارة مصانع الدبابات والطائرات وقاذفات القنابل والغواصات.. وخلا البرنامج من زيارة شاعر أو مصور أو موسيقى أو مخترع عظيم أو فيلسوف.

ولكنى متفائلة فحين كنت فى باريس منذ عدة أعوام حرصت على زيارة بيت الشاعر فيكتور هوجو. وحين ذهبت إلى البيت الذى يقع على مقربة من قصر الملك، وجدت طابورا طويلا يريد كل من فيه حجز تذكرة لزيارة بيت الشاعر ولم أجد طابورا لزيارة قصر الملك.

إننا كما يقول المؤلف ننفق معظم وقتنا وجهودنا فى صنع آلات اكثر مما لدينا وأحسن منها ولكن كل ما تفعله الآلات الحسنة الجديدة هى أن توفر لنا وقتا جديدا وتمدنا بجهود جديدة ولكننا لا نستفيد من هذا الوقت ومن تلك الجهود فائدة تذكر.

إن الآلات نفسها والقوى التى أمدتنا بها ليست هى الحضارة بل عون على الحضارة.

إن الحضارة فى صنع الأشياء الجميلة وفى حرية التفكير وفى الحياة الصالحة وفى توزيع العدالة بالتساوى بين الناس.

أقول ترى هل تتحقق هذه الآمال؟... لعل